المبحث الثاني

الاغتراب النفسي

لا يمكن للباحث إنكار علاقة الأدب بالنفس فالنفس تصنع الأدب، وقد يُرقِّي الأدب النفس، إذ أنَّ النفس (تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس)[١]. والأديب الواعي يتخذ من نتاجه الأدبي منهلاً يُعبِّر فيه عن همومه ورغباته وعواطفه لإيصال تجربته إلى غيره، حتى يعيش التجربة معه كل متلقٍ بطريقته وسعة خياله وعمق إحساسه.

والعمل الأدبي هو مجموعة التعبيرات النفسية والنزعات الاجتماعات السائدة، كما أنَّه صورة نفسية لشخصية الشاعر أو الأديب، لأَنَّ الإيصال للمتلقي وإفراغ دواخله دافعان متلازمان وشرطان ضروريان لبروز الفن ورغبة الأديب في أن ينفِّس عن عاطفته ورغبته في أن يضع هذا التنفيس في صورة تثير في كل مَنْ يتلقاها نظير عاطفته[٢].

وتتعدد مفاهيم الاغتراب حسب سياقات استخدامه، فقد يعني: (استلاب الذات الذي يحدث عندما يكون ما يجري نحوه سلوك الفرد من الأهداف غير الهدف الذي يتطلع إليه، وهو في أحد معانيه الأخرى تصادم أهداف الفرد وتعذر تحقيق الاتفاق بينهما، وهذا يخلق مشكلة خطيرة للفرد، وهي صعوبة المواءمة الذهنية مع مفردات الواقع الذي يعيشه)[٣].

وإنَّ التباين في الآراء، واختلاف أساليب المعالجة جعل مفهوم الاغتراب النفسي يتأرجح بين تلك الآراء، حتى قيل إنَّه (من الصعب تخصيص نوع مستقل نطلق عليه الاغتراب النفسي، وذلك لتداخل الجانب النفسي للاغتراب وارتباطه بجميع أبعاد الاغتراب الأخرى، الثقافي، والاقتصادي والسياسي)[٤] وغيرها، لكن تلك الآراء تكاد تتفق على دخول عناصر محددة في مفهوم الاغتراب النفسي، كالانفراد، والعزلة، أو العجز عن التلاؤم،

---

(١) التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، ص٤٤.
(٢) ينظر: المدخل إلى علم النفس، عبد الله عبد الحي ص٣١.
(٣) الأنثروبولوجيا النفسية، ص٤٣٩.
(٤) دراسات في سيكلوجية الاغتراب، ص٨٠.

والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع وحتى انعدام الشعور بالمغزى الحقيقي للحياة.

لذلك بات من المؤكد أنَّ الاغتراب النفسي لا ينفصل عن الاغتراب الاجتماعي فهو قد يبدأ في الذات الإنسانية، لكن مرجعه الحقيقي هو المجتمع بكل قضاياه. لذلك قيل إنَّ الاغتراب النفسي سياق يتعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية، وعقلية، وما ينتابه من شعور بالاغتراب عن العالم وفتور أو جفاء في علاقته بالآخرين، فانفصال الإنسان عن ذاته وواقعه وشعوره بالاختلاف عن الآخرين من خلال افتقاده الإحساس بنوع من العلاقة بينهما، ومن ثَمَّ انعدام الشعور بالقدرة على تغيير الواقع، وحتى افتقاد القدرة على اكتشاف القيمة في الحياة، إذ يؤدي ذلك إلى خلق حالة من اغتراب الذات عن الواقع الخارجي(١).

ويتفق أغلب علماء النفس في وصف مظاهر الاغتراب، على أنَّ هناك شعوراً سائداً بالألم، والحزن، واليأس، والعجز، والعزلة الاجتماعية، إذ يتصف المغترب بالقلق والاكتئاب، وغالباً ما يكون عدوانياً في سلوكه مع الآخرين، يرافقه إحساس باللاواقعية، والفراغ، والملل، والسأم، والسخط، وربما إلى عدم فعاليته في هذه الحياة، وقد تتفاعل هذه الأبعاد فيما بينها، حيث يزداد شعور الفرد ببعد أو أكثر من هذه الأبعاد(٢).

وقد يتضمن مفهوم الاغتراب النفسي انعدام الصلة بين الفرد وجزء حيوي وعميق من نفسه أو ذاته، وقد يكون اغتراباً عن قيم مجتمعه لانعدام تفاعله عاطفياً وفكرياً مع تلك القيم(٣).

لذلك فأنَّ اعتزال المجتمع والعيش في صومعة لهوٍ، أهون على الإنسان من أن يعيش في مجتمع لا يكون على وفاق ووئام معه، وذلك ما قصده الجنيد البغدادي (-٢٩٨ هـ) عندما قال: (مكابدة العزلة أيسر من مدارة الخلطة)(٤).

وبما أنَّ (الوحدة هي الحركة الأولى في جدل الاغتراب)(١)، نجد أنَّ مفهوم الاغتراب أضحى يتجسد بمظاهر العزلة الناتجة عن إحساس الفرد بانَّ الآخرين لا يواكبونه

---

(١) ينظر: الاغتراب سيرة ومصطلح ص٣٥، وينظر: الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني،مريم جبر فريحات (بحث) مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، ص٣٠٦.
(٢) ينظر: الاغتراب وعلاقته بمفهوم الذات (أطروحة) ص٣١.
(٣) ينظر: الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً (بحث) ص٣١.
(٤) الرسالة القشيرية، القشيري، ص٣٤٠.

فكرياً، وعمَّا يسود المجتمع من ثقافات مشوَّهة وتضليل سياسي، وتضارب في الآراء والأفكار، لذلك قيل إن الاغتراب النفسي (يشير لصراع أهداف الفرد مع الأهداف الثقافية في الوقت الذي يلتزم فيه بالوسائل المنتظمة، ومن ثَمَّ يكون الفاعل مع النسق الاجتماعي في بعض جوانبه البنائية المتعلقة بالوسائل وخارج النسق في الجانب المتعلق بالأهداف)[٢].

وبما أنَّ الاغتراب النفسي يُعدَّ لوناً من ألوان المعاناة الداخلية للنفس الإنسانية، فقد أدى الإحساس بالانعزال والوحشة، أو التفكير بالموت وفقد الأحبة إلى نمو الإحساس بالاغتراب النفسي، ومن ثم الانقطاع عن الناس، وعدم تواصلهم، أو الانسجام معهم، وعدم التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم، ومعاناتهم الوحدة والعجز والاتصال بالآخرين وفقدان القدرة على التعامل معهم[٣].

لذلك عُدَّ الاغتراب عن الذات في علم النفس حالة من حالات الصراع النفسي، تؤدي إلى الإحساس بفقدان الهوية، والشعور بالاختلال، وقيل في أسباب الاغتراب (إنَّ هناك أسباباً ذاتية وأسباباً موضوعية تؤدي إلى الاغتراب، وتعمل هذه الأسباب بصورة متداخلة، حيث ترد الأسباب الذاتية إلى عوامل نفسية ديناميكية، أو إلى ما يحدث من تشويه أو تحريف في نمو الفرد، أما الأسباب الموضوعية فهي العوامل الاجتماعية)[٤].

ولا شك في أنَّ دواعي الاغتراب الموضوعية تتشابك مع الدواعي الذاتية للشاعر في علاقات سببية يصعب أحياناً الفصل بينها لأنَّ ذات الشاعر المحرَّقة بالاغتراب اكتوت بنار ظروف موضوعية معينة، توقَّدت من خلالها حرقة تلك الذات، في الوقت الذي تنبع فيه كثير من العذابات الذاتية من دواع موضوعية.

كما أنَّ الاغتراب النفسي لا ينفصل عن الاغتراب الديني أو السياسي أو الاقتصادي، باعتبار أنَّ الشخصية الإنسانية ما هي إلاّ وحدة متكاملة في جوانبها النفسية والسيسولوجية والاجتماعية، لذلك نجد أنَّ آثار الاغتراب النفسي أخذت بعداً عميقاً عند شعراء القرن السابع الهجري، الذي تميَّز بالتعقيد والاضطراب في ميوله واتجاهاته كافة.

---

(١) الإنسان والاغتراب ص٢٧.
(٢) نظرية الاغتراب ص٣٩٣، وينظر: الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني، ٢٩٠.
(٣) ينظر: الغربة في الشعر العراقي في القرن العشرين، د. فليح الركابي، ص٨٩.
(٤) الاغتراب وعلاقته بمفهوم الذات (أطروحة) ص٣١.

اليأس وفقدان الأمل:

إنَّ بعض مضامين الاغتراب النفسي هو اضطراب العلاقة التي تهدف إلى التوفيق بين مطالب الفرد وحاجاته وقدراته من جانب، والواقع المعاش وأبعاده المختلفة من جانب آخر. فمن المشكلات التي تواجه الإنسان هو الشعور بالعجز عن تحقيق بعض أهدافه الجوهرية في الحياة، مما يُوَّلد بداخله حالة من الإحباط التي قد تصل إلى مستوى القنوط واليأس، ومن بين تلك الأسباب الفقر الذي يقف الإنسان أمامه عاجزاً عن تدبير متطلبات الحياة المفروضة عليه، فيشعر باليأس حين يتقدم به العمر، لكن أمنياته تبقى حلماً كامناً في نفسه وذلك ما نستشعره في قول أبي العباس الموصلي حين راح ينعي نفسه ويُعزِّيها، بقوله:

(الخفيف)

نَـــزَلَ الشَّـــيْبُ عَظَّـــمَ اللهُ أجْـــرِيْ ... مَـــا بلغـــتُ المُنَـــى ولاَ صَـــحَّ نَـــذْري
كَـــمْ حَمَلْـــتُ الأثْقَـــالَ كَرْهـــاً وقَاسَـــيْتُ ... أُمُـــوراً مِـــنْ بعْضِـــها عِيْـــلَ صَـــبْريْ
لَـــوْ تُلاَقِـــيْ صُـــمُّ الجِبَـــالِ الَّـــذي قَـــدْ ... نَـــالَ قَلْبـــي لَفَـــكَّ صَـــلْدَ الصَّـــخْرِ

وقد تعلو نبرة ذلك الشعور حين يرى أنَّ أهل بيته حملاً مفروضاً عليه لا يسعه أصلاحه أو الخلاص منه، فيتوقد أساه وحزنه حين يرى أنَّ عمره راح ينقضي بالأماني الميتة، إذ يقول:

كُنْـــتُ أرْجُـــو صَـــلاَح إبنـــي مـــن الله ... وهَـــذا أَمْـــرٌ بـــه جَبْـــرُ كَسْـــرِيْ
ثُـــمَّ ارجُـــو الخـــلاصَ مِـــنْ زوجـــةٍ لِـــيْ ... فانْقَضـــى العُمْـــرُ بـــالمُنَى واعُمْـــريْ

ثم يميل إلى شكوى الزمان ومعاتبته حين لم يذله ما يتمنى، فنلمس اغترابه النفسي وهو يسأل بتوجع عن طباع ذلك الزمان الذي خصَّه بنباله، فيقول:

(الخفيف)

وأرى الـــدَّهْرَ مُعْكِســـي فـــي أمُـــوريْ ... يـــالَقَوميْ مـــالي ومَـــا للـــدَهْرِ
أتُـــرى طـــالعيْ يَـــدُلُّ بهـــذا ... أمْ طِبَـــاعُ الزَّمـــانِ ياليـــتَ شـــعريْ
قِيْـــلَ إنَّ الزَّمـــان حُلْـــوٌ وَمُـــرٌّ ... مـــا شَـــرِبْنا إلاَّ كُـــؤُوْسَ الصَّـــبْرِ

ونظراً لاضطراب نفسه وتقلُّب إحساسه بين مأساته تلك نراه يعود في القصيدة نفسها إلى استرجاع همِّه، وبؤسه، وخيبة نفسه في زوجه وولده اللذين تسببا في انتكاساته تلك من خلال ما يرى فيهما من سوء طباع اصطف بجانب الزمان وجوره، لينالوا منه، إذ يقول:

مِـــنْ غُـــلامٍ ربَّيْتُـــهُ لـــي عَـــدُواً ... كَنْـــتُ ارْجُـــوْهُ مَلْحـــدِيْ فـــي قَبْـــريْ
وعَجُـــوزٍ قـــدْ عُمِّـــرَتْ لِعَنـــائي ... وشَـــقَائي ومِحْنَتـــي وَلِضُـــرِّي
عُمْرُهَـــا بالقيـــاسِ مُـــذ عَهْـــدِ نُـــوحٍ ... وَرأَوْهـــا يـــوم القتـــال ببـــدْرِ
قـــد سَـــقَاني كِلاهُمـــا السُّـــمَّ والحَنْظَـــل ... قهْـــراً صـــرْفاً وقَـــدْ بـــانَ سُـــكرْي

وتطول القصيدة ويطول معها نفث هموم نفسه من طباع زوجته التي حيرَّت فكره وتركته مذهولاً حائراً متفكراً بأمرها، حتى بات يقول:

قُلْـــتُ فيهـــا شِـــعْراً بُجِهْـــديْ فصَـــارَتْ ... مثْـلَ صَـخْرٍ وصِـرْتُ مثْـلَ أخْـتِ صَـخْرِ
غيـــر أنَّ الخنســـاءَ تمـــدَحُ صَـــخْراً ... وأنـــا أهْجـــو مـــا يُحيِّـــرُ فِكْـــري

أشْـــغَلتني عـــن عِيْشـــي ومَعاشِـــي ... بِهُمُـــومٍ قَـــدْ حـــارَ فِـــيهنَّ أمـــريْ

ويغدو به فكره وإحساسه ومرارة شعوره إلى أعلى درجات الاغتراب النفسي حين راح يتمنى الخلاص منها وفراقها، إذ يشطح به خياله في تصوير حالة حُرم منها وتمنا ها، ليعيشها في خياله، إذ يقول:

إنْ قضـــى اللهُ بـــالفِراَقِ وفِـــيَّ ... رَمَـــقٌ عَـــدْتُ كـــالعزيزِ بمصـــر
أحمَـــدُ الـــدَّهْرَ بعـــدَ ذَمٍّ قـــديْمٍ ... ثُـــمَّ أمْحُـــو ذاك العِتـــابَ بشُـــكْر

لكنه حين يصحو من حلمه الذي صوَّره لنفسه يشعر باغترابه، وضياع عمره دون أن يلمس بعض أمنياته، إذ يقول:

إنْ جَـــرَى خُلْـــفُ مـــا أقـــولُ فبـــاللهِ ... أكتبـــوا مِـــنْ ذي علـــى لـــوْحِ قبـــري:
مَـــاتَ هـــذا ولَـــمْ يَنَـــلْ بعـــض مـــا رامَ ... وكَـــمْ هكـــذا قتيـــلٍ بِقَفْـــرِ[1]

(١) قلائد الجمان، مج١، ج١، ص٢٩٠-٢٩١، وهو أحمد بن جعفر بن الحسين أبو جعفر الموصلي، رجل سوقي يعيش على التجارة والنسج، كان فقيراً جداً وكان ذكياً فطناً يحفظ الأشعار والحكايات النادرة، كان حياً سنة (٦٥٤هـ) ، ينظر: م. ن، ص٨٩-٢٩٠.

وقد يجد الاغتراب الذاتي مناخاً ملائماً للنمو حين يستبد القهر والإذلال، ولاسيما عندما يسود التفاوت أو تسود اللامساواة في المجتمع، وشعور الإنسان بتميزه من سواه، فيصب المجتمع غضبه عليه، فيشعر بالعزلة، كقول أحمد أبو عقيل البغدادي الموسوي (-٦٤٢هـ):

(الوافر)

لَعَمْـــرُك مـــا جنَيْـــتُ علـــى أُنـــاسٍ ... جِنَايـــةَ مَـــنْ يـــؤُوْبُ علـــى هَـــوَانِ
ولكنِّـــي فَضُـــلْتُ فكـــانَ فَضْـــلي ... علـــيهِمْ مـــدْرَةَ الحـــرْبِ العـــوَانِ
ولمَّـــا أن علـــوْتُهُمُ رَمَـــوْنِي ... بِعـــرْضٍ حـــين أعجـــزهُمْ بَيـــاني[1]

القلق:

وقد يحدو القلق بالشاعر نحو الاغتراب، إذ عُدَّ كـ (الشعاع الثابت لمشاعرنا الإنسانية)[2]، والذي يتضاعف داخل النفس الإنسانية بحسب اختيار الإنسان لطريقة مواجهة الحياة، وقد يتولد من جراء الصراع الذي يخوضه الإنسان من أجل وجوده الإنساني ضد كل ما هو لا إنساني يحاول الحد من حريته[3]، فتصطبغُ شخصية الشاعر بالتمزق والقلق، فيعيش (حالة ازدواج في الكيان النفسي ينعكس معها انشطار الوعي الشخصي بفضل ضغوط خارجية أو تناقضات داخلية نفسية انعكاسية تنبع من تقمص تجربة ذاتية واعية أو غير واعية، فالتمزق تجربة جاهزة لدى الأديب تتحول عبر الحاسة الفنية معيناً خصباً يغذي أدبه بروح وجودي، فيصطبغ تعبيره عن المرارة المأساوية)[4]، وقد يتغلب الاغتراب النفسي على الشاعر، ولاسيما حين يبلغ درجة من الحزن والقلق، تجعله في سجن ذاتي تحت وطأة معاناة وحدته الفنية، وتزداد أتساعاً عندما تتواءم مع الغربة المكانية فيشعر الشاعر بالفقد للعالم الخارجي، لذلك رحنا نزعم أنَّ هذا القلق، وهذه الوحشة لم يكونا وليدا

(١) م. ن، مج١، ج١، ص٣٠١، وهو احمد بن معد بن علي أبو عقيل البغدادي العلوي الموسوي شاعر جزل القول يذهب مذهب الحيص بيص في استعمال الألفاظ الوحشية، أكثر قوله في الافتخار، وهو من أولاد الإمام موسى ابن جعفر ﷺ ينظر: م. ن، ص٣٠١-٣٠٢.
(٢) الوجودية فلسفة الواقع الإنساني، غازي الأحمدي ص٤٥.
(٣) م. ن، ص٤٦.
(٤) الاغتراب في القصيدة الجاهلية، محمود هياجنة، ص٢٢٢.

فراغ، إذ نظن أموراً متشابكة ساهمت في دفع نفسه إلى هذا الاضطراب، أولها القلق والحزن اللذان لازما الشاعر، وكانا سبباً مباشراً في توتره الشعري، حين عانى من وقع الحياة ورفض القيود التي فرضت على حريته وفرديته، وذلك ما نلمسه في تعبير التلعفري، إذ يقول: (الوافر)

نَهـــاري كُلَّـــه قَلَـــقٌ وفِكْـــرُ وَليلـــي كُلَّـــه أَرقٌ وذكـــرُ
تَقَسَّـــمَنِي الهـــوَى كَمـــداً وحزنـــاً فأمرُهُمـــا لِحَتْفـــي مســـتمرُ[1]

فهذه الصورة القلقة التي رسمها الشاعر تبرز جانباً من عذابات الشاعر وانفعالاته، والتي نلمس فيها نغمة عزفت على أوتار الحيرة لتثمر سمفونية حزينة جسدت معنى التيه والحيرة وصوَّرت شخصية قلقة مضطربة حملت الهم بين ضلوعها، حين غدى لا يسمع سوى صدى صوته الذي يرد على صرخته، فعاش حياة شعرية قلقة سجلها في شعره. إذ حمل نفثات همه ونفسه المغتربة، فنهاره توزع بين القلق والفكر، وليله أنقضى بين الأرق والتذكُّر، فغلب عليه الكمد والحزن، وأيقن حتفه في مهالك تلك الهموم، وفي ذلك يتجلى الاغتراب النفسي، ذلك أنَّ (تشكيل اللغة الجديدة يتأتى للشاعر حين يتناول الألفاظ ثم يديرها في نفسه، حتى إذا ما تلاءمت مع تجربته الذاتية يعيد ترتيبها ووضعها في سياق خاص به)[2].

فتتضح مدلولاتها في التعبير عما يجول في خاطر الشاعر من هموم وهواجس فقد عاش حياة قلقة مضطربة سجَّلها في شعره الذي رحنا نلتمس فيه بعض الحقائق التي تقرر أنَّ هذا القلق وذاك الاغتراب النفسي قد أرَّقا الشاعر، إذ أنَّ هناك صوراً واضحة سجلها في شعره حين حمَّلها اغترابه ينبغي لنا تشخيصها من خلال محاولة الكشف عن خلفية بواعثها.

إذ يشعر قارئ ديوانه أنَّ الشاعر يتحدث عن تجربة نفسية خاضها مع اغترابه، فكان يتنقل بين البلاد بحثاً عمَّا ضاع منه من استقرار، إذ عبَّر بشعره عن ذاته، ويمكن تلمس سيرته من خلال نتاجه الأدبي الذي تمثل في اللهو والعبث وشرب الخمرة والهيام في أحضان الطبيعة مع مَنْ شذَّ مِنْ أمثاله، إذ بدأ حياته مادحاً الملك بدر الدين بن لؤلؤ ثم

(١) ديوانه ص١٤.
(٢) بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ص٧٩.

الوزير شرف الدين أبا البركات بن المستوفي في إربل وحين لم يطب له المقام، ولم تجد نفسه ما تبتغيه أرتحل إلى الشام واتصل بالملوك الأيوبيين ومدحهم ولاسيما الملك العزيز غازي بن أيوب (-٦٣٤ هـ) صاحب حلب، ونال عطاءهم لكنَّه فضَّل الارتحال إلى دمشق ومدح ملكها الأشرف موسى بن أبي بكر العادل (-٦٣٥ هـ)، لكنه أتلف ما حصل عليه من عطاء على ملذاته وشهواته في شرب الخمرة والقمار، وتلك حقيقة صرَّح بها في قوله:

(مخلع البسيط)

أَقلعـــــتُ إلاَّ عـــــن العُقـــــار وتُبْـــــتُ إلاَّ عـــــن القِمـــــارِ
فالكـــأسُ والقمـــر لـــيس يخلـــو مـــنهم يمينـــي ولا يســـاري[١]

لكن الملك الأشرف طرده بعدما أدرك انه لم يرتد عن سجيته، فكانت وجهته حلب وملكها الناصر يوسف بن محمد بن غازي (-٦٥٩هـ) الذي تنعَّم عليه بجوائزه لكن خلقه لم يتغير على الرغم من مطالبة الملك الناصر له بالسعي لإصلاح نفسه، حين أَمر بالمناداة (مَنْ قامر مع الشهاب التلعفري قطعنا يده)[٢] لكنه لم يرتدع وعبَّر عن ضيق نفسه واغترابها حين لم تجد لها هادياً، بقوله:

(الرجز)

يَنْشَـــرحُ الصَّـــدرُ لِمَـــنْ لاعَبنـــي والأرْضُ بـــي ضـــيَّقَةٌ فروجهـــا[٣]

ثم أخذ يتنقل في ديار الشام قبل أن يتخذ من مصر مأوى له، لكن ذلك المأوى لم يجد له صدى طيباً في نفسه الحائرة المتعبة، فخرج منها هائماً مُحمِّلاً تلك الديار عذاباته، إذ يقول:

(دوبيت)

مـــالي ولِمصْـــر لا سَـــقَاها ربـــي غيثـــاً غـــدقاً مـــن ســـاريات الســـحبِ
بـــالروحِ دَخَلْتُهـــا وبالقَلْـــبِ فـــلا بـــالروحِ خَرجـــتُ لا ولا بالقلـــبِ[٤]

(١) ديوانه ص١٨.
(٢) فوات الوفيات ٦٢/٤، النجوم الزاهرة، ٢٥٥/٧.
(٣) فوات الوفيات ٦٥/٤، والديوان خلا من هذا البيت.
(٤) ديوانه ص٧.

فلم يجد ملاذاً سوى الشام يتنقل بين ديارها مُستجدياً بشعره وحين تعبت نفسه، وخط الشيب مفرقه، وضاعت أيام شبابه راح يناجي نفسه نداء اليائس الغريب، إذ يقول:

(الطويل)

سَلامٌ على عَصْرٍ الشباب الذي مَضى ... وروحي بضافي ظله ما تملَّت
وآها لأيام المشيبِ الذي بها ... تجلَّت غيابات العمى تولت
عرفتُ بها هذا الزَّمان وأهله ... فَرحِتُ بشيبي غافراً كُلَّ زلة
بَلوتُ الوَرى خبراً فلم أرَ فيهمُ ... خليلاً سديداً عنده سدَّ خُلتي[1]

فكانت حماة موطنه الأخير حين وجد عند ملكها المنصور محمد بن محمود (-٦٨٣هـ) بعض ما تصبو له نفسه، بعدما أتعبها الاغتراب والهيام وأخذ اليأس ينخرُ عظامها، فغدا بها قلقها إلى قناعات هي وليدة اليأس والاستسلام، حين راح يخاطب حُماة، قائلاً:

(الكامل)

أحماةُ أنَّ عهودَ أهلك أحكمتْ ... أسْبابها عندي فليست تنقضُ
لكما أزف الرحيل وها أنا ... والعيسُ تحدي مُنشدٌ وتعرِّضُ
أرضٌ أروحُ بغيرها مُتعوضاً ... أتُرى ترى عيني بمن تتعوَّض[2]

مُنهياً بذلك رحلة النفس في عالمها الاغترابي بعدما راحت تتلمس خيوط الرحيل التي نسجها القدر، ليبدأ رحلة اغترابية أُخرى في عالم آخر، ابتدأها بتلمس العفو والمغفرة، حين يقول:

(المجتث)

مَنْ قال عنِّي بأنِّي ... يوم القيامة أَخْسَرْ؟
وإنَّني بذنوبي ... إلى جهنَّم أُحْشَرْ؟[3]

(١) م.ن، ص٨.
(٢) ديوانه، ص٢٣.
(٣) النجوم الزاهرة، ٥٥/٧، ذيل مرآة الزمان، ٢٢٨/٣، وينظر: فوات الوفيات ٦٢/٤، الأدب العربي في العصر الوسيط، د. ناظم رشيد، ١٨٩-١٩٢، وقد خلا الديوان من البيتين.

الفقر والصراع النفسي:

يبدو أنَّ للإخفاقات التي تصيب النفس أثراً في تشعب حلقات الاغتراب، حيث تتوالى زفرات الصراع داخل النفس لتشكل واقعاً مأزوماً يدفع النفس نحو الحيرة والاغتراب، لذلك دفع الفقر والعوز إلى أن تتوغل الشكوى في نفس ابن دانيال، ولاسيما حين راح يرسم لوحات متعددة غلب عليها الفشل والحرمان، كونها إسقاطاً شديداً لما يعتمل في نفسه من عوامل اليأس والإحساس بالإحباط، حتى صار يرى نفسه أفقر مَنْ مشى على قدمٍ، إذ يقول: (الكامل)

أصبحتُ أفْقَرَ مَنْ يَروحُ ويغتدي ... ما في يَدي من فاقتي إلاّ يَدي
في منزِلٍ لم يَحوِ غَيريَ قاعداً ... فمتى رَقَدتُ رقدتُ غيرَ مُمَدَّد[1]

ثم يتخذ من تكرار الشكوى وسيلة لتأكيد أحزانه ولاسيما حين يمدها بصور مأساوية إنسانية قد تتعادل حجماً مع مأساته الخاصة ولاسيما حين يحاول أن يجسد مشاعره وإحساسه، وإحباطات نفسه من خلال رسم صور أطفاله الجوعى أمام صرخات زوجته التي ولَّدت في نفسه مأساة اغترابية وقف أمامها عاجزاً، إذ يقول:

(الخفيف)

ورأَيتُ الأطفالَ من عدمِ الخبـ ... ـزِ تَلَظَّى ولو على قرصِ جَلّهِ
تلكَ تشكو وتيكَ تدعو وهذي ... تتجنى عليَّ وَهْيَ مُدلَّه
فترانـي مُلْقى وَعرِسي تُنادي ... قُم وعَجِّلْ فليس في الصَّوْتِ مهلَه[2]

وحينما لم يجد ملاذاً يسمع صدى صرخته، دفعه عجزه واغترابه النفسي إلى إسقاط إرهاصات ذلك الاغتراب على نفسه حين غدا يلومها ويهجوها ناعتاً إياها بما لا يليق بالنفس الإنسانية، كقوله:

(الخفيف)

---

(١) المختار ص١٥٤.

(٢) م. ن، ص٧٨، الجلة: بفتح الجيم روث البقر والغنم، يستعمل للوقود في التنور أو تحت القدر، المدله: من الدلال.

أَنـــا كالبـــانِ فـــي قَـــوامِيْ وإن أَفـــ ـــردْتَني كُنْـتُ فـي التَّهـارش ضَـاري
أَنـــا مثـــلُ الخَـــروف قُرنـــاً وإنْ أســـ ـــقطْتَ فـــائي أُعَـــدُّ فـــي الأَقـــذار
أَنـــا تيســـيرُ مـــا يقـــادُ بحـــذف الـــ ـــياءِ والـــرَّاءِ حالـــة الإعســـارِ[1]

وعندما يشتد أحساس الشاعر بالاغتراب وتتضاءل قدراته في تحدي العالم الخارجي، أو حتى التعامل معه، وتضيق به غربته ووحدته، يجد في الموت منقذاً وشافياً، لذلك نجد ابن دانيال يتمنى الموت، إذ يقول:

(الكامل)

فـــي منـــزلٍ كـــالقبرِ كَـــمْ قَـــدْ شـــاهَدَتْ فيـــه نَكيـــراً مُقلتـــاي وَمُنكـــرا
لـــو لـــم يكُـــنْ قبـــراً لمَـــا أَمسـيتُ نسـياً فيـــه حتـــى أَنَّنـــي لـــم أذكـــرا
والقبـــرُ أَهنـــا مَســـكناً إذْ لـــم أَكـــنْ مَـــع ضـــيقِ سُـــكناه أُطالـــبُ بـــالكرى

أَفـّـٍ لِعُمْـــرٍ صـــارَ فـــي رَيَعانـــه مثلـــي يَـــوَدُّ بـــأَنْ يَمـــوتَ فَيُقبـــرا

ثم يصطنع الحوار بينه وبين زوجته، ليضفي على مأساته بعداً دلالياً آخر من خلال عرض مأساتها ودعوتها له لطلب الرحلة بحثاً عن مصدر رزق لهم، إذ يقول:

ولَـــرُبَّ قائلـــةٍ امـــا مِـــنْ رحلـــةٍ تُمســـي وقَـــدْ أَعْسَـــرتَ منهـــا مُوسِـــرا
سِـــر فـــالهِلالُ كمالُـــهُ فـــي سَـــيْرِهِ والمـــاءُ أَطيَـــبُ مـــا يكـــونُ إذا جـــرى
كـــم مْـــدْبرٍ لمَّـــا تحـــرَّكَ عَـــدَّهُ بعـــدَ السُّـــكونِ ذوو العقـــولِ مُـــدبِّرا

لكن اغترابه يسري بنفسه إلى اليأس حين يرى النحس لا يفارقه: فيقول:

فأَجبتُهـــا سَـــيري ومَكثـــي واحـــدٌ الـــنَّحسُ نَحـــسٌ مُنجـــداً وَمُغَـــوِّرا
إنَّ المـــدائِنَ وَهـــيَ أَوســـعُ بقعـــة ضـــاقَتْ عَلـــيَّ فكيـــف أَرحَـــلُ للقـــرى
تـــاللهِ قـــد أَقـــوى السَّـــماحُ وأَصْـــبَحَتْ منـــهُ عِـــراصُ البِـــرِّ بـــرّاً مُقْفِـــرا[2]

(٣) م.ن، ص١٦٤.
(٢) المختار، ١٥٢-١٥٣.

ولقد سكن اليأس نفسه بفعل اغترابها، مما حدا به إلى تكرار صيحاته، حين رأى نفسه انحس الناس، فراح يصرخ بألَم، إذ يقول:

(الوافر)

فـــأني أَنْحَـــسُ الثقلـــين طُـــرّاً فكُـــلّ الـــنَّحس يُنْقَـــلُ عـــن مثـــالي[1]

لذلك نجده عاش حياة تخبط بها بين الضلالة والهدى، لا يعرف وجهته ولا يتهدي إلى طريق، وهو يرى تعثر طموحاته والتي غدت طريقاً مُيسراً أمام مَنْ هو دونه، لذلك توزعت حياته بين شرب الخمرة والشكوى والمديح والهجاء الذي وجد فيه تفريغاً لهمه، ولكن عندما تسكن نفسه مع تقدم السنين يدرك أن الحياة هي الحياة بإقبالها وإدبار ها، فينزع إلـــى الاســـتغفار، بعـــد أن تشـــبعت نفســـه الآثـــام والخطيئـــة، قـــائلاً:

(مخلع البسيط)

اســـــتغفرُ الله مِـــــنْ ذُنـــــوبي فـــــإنَّنِي ظـــــاهرُ العيـــــوبِ
أَشْـــرَقت يـــا نَفْـــسُ فـــي التَّصـــابي قـــد آنَ يـــا نَفْـــسُ أنْ تتـــوبي
غيـــرُ بعيـــدٍ مَـــدَى المنايـــا تُـــوبي إلـــى الله مـــن قريـــبِ[2]

وبما أنَّ الصراع أحد مؤشرات الاغتراب، ووسيلة من وسائل أعلاء الذات، فقد لجأ بعض الشعراء إلى مغالبة النوازع النفسية في صراع داخلي يهدف إلى استعلاء شخصية الشاعر وقدرته على تحمل العناء، لذا اهتدى بعض الشعراء إلى تأديب النفس من خلال مخاطبتهـــا وكـــبح جماحهـــا، كقـــول عبـــد الســـلام القاضـــي التكريتـــي:

(الكامل)

يـا نَفْـسُ أنـتِ عـن الرَّشـاد بِمَعْـزِل لا تُبصـــري غيـــرَ المَمـــاتِ وتَغفلـــي
وتُـؤَمِّلي طـولَ الحيـاةِ وَهَـلْ سَمَعْـ ـــتِ بأَنَّـــهُ طالَـــتْ حيـــاةُ مُؤمِّـــلِ؟
غَرَّتُـكِ مـن دُنْيـاكِ وَهْـيَ غَـرُورَةٌ خُـــدَعٌ فبعْـــتِ مُعجَّـــلاً بمؤَجَّـــلِ[3]

(١) المختار، ص٢٧٢.
(٢) م. ن، ص٤.
(٣) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص٣٧٩.

ويراها ابن أبي حديد مُركَّباً فعله زلل، فغدا يطلب المغفرة من الله سبحانه لزللها، إذ يقول: (المنسرح)

إنْ زَلَّتِ النَّفْسُ هِيَ في البَدَن مُرَكَّبٌ كُلُّ فِعْلِهِ زَلَلُ
يَا ربُّ فَاغفِرْ لَهَا لِغُرْبَتِهَا فَإنَّ فيه الغَرِيْبَ يحتمِلُ[1]

في حين راح الصرصري يُؤنب نفسه التي قضت أوقاتها بالتمني والترجي ناسية أنَّ لهذا الزمان انقضاءً، فيقول محذراً كلَّ من ضاع وقته في هواه:

(الرجز)

ما بين قربٍ وبعادٍ وقلى وبين ليتَ ولعلَّ وعسى
ضاعَ زَماني وَوَهَتْ شيبتي وهوَّحَ المخَّضرُ منها وذوى

يا ويحَ عبدٍ ذَهَبتْ أَوقاتُهُ مُستغرقات في جهالات الهوى
يسعى إلى الإثم جذلان وقَدْ أَحصى عليه الكاتبان ما سعى
إنْ كانَ لا يخْشى الرقيبَ فليَخفْ بطشةَ مَنْ يعلمُ ما تحت الثرى[2]

السجن وإرهاصات النفس:

الشعر نزف فكري ووجداني ينفثه الشاعر من مخيلته حين تشترك في صنعه مؤثرات التجربة والرغبة والإرادة، والحاجة البايولوجية المتمثلة في العواطف والأحاسيس فضلاً عن هواجس النفس، لذلك فأَنَّ الهمَّ الذاتي والإحساس بالمرحلة هما أول العوامل الداخلية في صنع شعر الشاعر وتحديد سماته.

ويمثل السجن حالة من حالات الحرمان الحسي عند الشاعر السجين فتنطلق مخزونات الباطن لتصور العزلة التي يحققها العيش بين الجدران والأصفاد، فقد يكون الشاعر سجيناً اجتماعياً، معزولاً عن مجتمعه مغترباً عن نواميسه على الرغم من تمتعه

(١) شعره (أطروحة) ص٢٤٠.
(٢) ديوانه ص٧٠، القلى: البعض، صوّح المخضّر: يبس، ذوى: جفَّ، وينظر: في المعاني نفسها عند الشعراء، ديوان ابن المستوفي الإربلي، (م. الذخائر) ص١٥٠، فوات الوفيات، ١١٤/١، ١١٧، ٣١٦.

بالحرية الفردية، لذلك لا يمكن أن نقف بجانب من تجاهل الإرهاصات النفسية وظن أنَّ اغتراب السجن هو نمط آخر من أنماط الاغتراب المكاني[١].

فالشاعر السجين يعيش في حالة من الحرمان الحسي من الداخل، ويحاول أن يعالجها معالجة ذاتية لا يدرك وقعها إلاَّ مَن ذاق مرارة ذلك الإحساس، إذ يميل السجين ذاتياً إلى القلق والاكتئاب.

وقد يحقق السجن في الشاعر رفضاً عنيداً لحالة حرمانه من التواصل والتمتع بحرية العيش حتى يأتي شعره ممثلاً لمشاعر الثورة والمكابرة والعناد.

وقد يستعين الشاعر السجين بأقرب موجود من أجزاء المحيط الذي كان يتعامل معه قبل سجنه فيتواصل معه ويعده رمزاً متبقياً من رموز الحرية المذشودة[٢]، لذلك جسَّدَ السجن واقعاً مادياً ومعنوياً محزناً حدَّدَتْ قيوُده حركة سجينة من خلال ما تفرض عليه من ظرف إجباري لابد له من التعامل معه، فتتضح حدَّة اليأس ومرارة المعاناة حين تغلق نوافذ الأمل أمام الشاعر السجين.

وقد عانى كثير من الشعراء مأساة السجن فعاشوا الألم والاغتراب حين تعمَّق هذا الشعور بتلك الأجواء النفسية التي عاشوها تحت وطأة القهر والابتعاد.

لذلك تعالت صورة الجزع والتوتر النفسي اللاهب عند الحاجري من خلال تلك الصيحات التي أطلقها مُستجيراً بكل من يرى فيه أملاً يترجاه، لذلك بدت مشاعر الاغتراب النفسي متنامية بين جوانحه حين ضاقت نفسه من قيود ذلك السجن، فلم يجد من سبيل إلاَّ أن يطرق كل الجنبات في محاولة لأن يستدر عواطفها، ويثير مشاعرها، ولاسيما عندما سُجن في قلعة خفيذ القريبة من إربل، إذ يبدو أن أيام السجن كانت ثقيلة الوطء عليه، ولاسيما أنَّه اعتاد اللهو والسمر، فسرعان ما ضاق بالسجن وأبوابه الموصدة التي وقفت حاجزاً بينه وبين مباهج الحياة، فراح يطلق صرخات يائسة لينفس عن بعض إرهاصات نفسه، إذ يقول: (الكامل)

---

(١) ينظر: مثلاً الاغتراب في الشعر الجاهلي (أطروحة) ص١٦٠، الغربة والحنين في شعر القرنين السابع والثامن (أطروحة) ص١٣٣.

(٢) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي ص١٣٦-١٣٨.

قَيْـــدٌ أُكابـــدُهُ وسِـــجْنٌ ضَـــيِّقُ يـــا ربُّ شـــابَ مِـــنَ الهُمُـــومِ المَفْـــرِقُ
وإنْ لـــم يكُـــنْ فَـــرَحٌ فَمَـــوْتٌ عاجِـــلٌ إنَّ الحِمـــامَ مـــن الرَّزايـــا أَرْفَـــقُ

يـــا بَـــرْقُ إن جُـــزْتَ الـــدِّيارَ بإرْبِـــلٍ وعـــلا عليـــكَ مِـــنَ التَّـــداني رَوْنَـــقُ
بلِّـــغْ تَحيَّـــةَ نـــازحٍ حَسَـــراتُهُ أبـــداً بأذيـــالِ الصَّـــبا تَتَعلَّـــقُ
واللهِ مـــا سَـــرَتِ الصَّـــبا نَجْدِيَّـــةً إلاَّ وكِـــدْتُ بِـــدَمْعِ عَيْنـــي أَشْـــرِقُ
كَيْـــفَ السَّـــبيلُ إلـــى اللقـــاء ودَونَنـــا صَـــمَّاءُ شـــاهِقَةٌ وبـــابٌ مُغْلَـــقُ[1]

وحين طالت مدة سجنه بدا ضعيفاً يائساً يسعى لطلب الرحمة والمغفرة والشفاعة، معاتباً الدهر في حكمه من خلال بث الإرهاصات المعتملة في داخله، إذ يقول: (المجتث)

وارَحْمَتـــــــا لِعزيـــــــزٍ فـــي السِّـــجْنِ أضـــحى ذلـــيلا
حَليـــفُ وَجْـــدٍ يُعـــاني أَسْـــراً وقَيْـــداً ثقـــيلا

يـــا إخـــوتي اليـــوْمَ حَقَّـــاً يُفـــدي الخليـــلُ الخلـــيلا

يـــا دهْـــرُ كُنْـــتَ علينـــا بمـــا قَضَـــيْتَ عَجُـــولا[2]

فهو يصب شكواه على فعل الزَّمان في محاولة منه للبحث عن ظلٍ يُسقط عليه انفعالاته النفسية وعجزه وفقدانه الإحساس بالحياة والوجود، لكنه عندما لم يجد في ذلك الظل صدى يذعى نفسه بدموع غزار، زاد في انسكابها ظلام السجن وقيوده، إذ يقول: (الخفيف)

إنَّ فـــي السِّـــجْنِ مُسْـــتَهاماً أَسـيراً قَـــلَّ أَعْوانُـــهُ وزادَ عَنـــاهُ
كُلَّمـــا قصَّـــرَ المُسَـــاعِدُ فيمـــا نالَـــهُ طـــالَ فـــي الظَّـــلامِ بُكـــاهُ[3]

(١) ديوانه (رسالة) ص٣٦٦، وينظر: ص٢٣.
(٢) ديوانه (رسالة) ، ص٣٧١-٣٧٢.
(٣) ديوانه (رسالة) ، ص٣٧٨.

وحين تغرق نفسه في أساها وانكسارها لم يجد منقذاً سوى الاستعطاف مستسلماً من خلال استذكار القيم العربية النبيلة، القائمة على العفو، والحلم، والكرم، علَّها تجد صدى في نفس مَنْ يستعطفه، إذ كتب إلى مظفر الدين يُذكِّره بما سبق من خدمته، قائلاً: (البسيط)

هَـبْ لـي جِنايـةَ مازَلَّـتْ بـه القَـدَمُ ... فـي العَفْـوِ تَطْمَـعُ مِـنْ سـاداتِها الخـدَمُ
حَسْـبُ المُسِـيء جَـزاءً إسـاءتِهِ ... فَـرْطُ النَّدامـةِ إذ لا ينفَـعُ النَّـدَمُ
فَعَلْـتَ مـا يَقْتَضـيهِ السُّـخْطُ مُقتـدراً ... فـأينَ مـا يَقْتَضـيهِ الحلْـمُ والكـرمُ؟

إنـي لأَعجَـبُ مِـنْ إبطـاءِ عَطْفِـكَ لـي ... وأَنْـتَ لـي وعلـيَّ الخَصْـمُ والحَكَـمُ[1]

ويبدو أنَّ الاستعطاف بات ملاذاً للشعراء علَّهم يجدون فيه راحة أنفسهم، بعدما طحنها اليأس وضاقت النفس بعزلتها، فيحاول الشاعر بث مأساته علّه يثير عواطف مَنْ استجار به شاكياً إلى الله في الوقت نفسه من قسوة الدهر الذي سعى في إذلاله، وما تلك الشكوى إلاّ محاولة من الشاعر لإثارة الحس الديني والوجداني عند مَنْ استجار به وعاتبه، وهو مسلك تسعى به النفس للخروج من اغترابها، إذ نلمس ذلك الإحساس عند علي بن شماس الإربلي (-٦٢٢هـ):

(الطويل)

ونَهْجُـرُ أَوطـانَ البلـى ومنَـازلاً ... غَبُـوقي أَحْـزَانٌ بهـا وَصـبُوحُ
ونـأمَنُ رَوْعَـاتِ الحُبُـوْسِ وَيْنَجلـي ... شُـحُوبٌ علـى حُـرِّ الوجُـوه يَلُـوْحُ
إلـى الله يَشْـكُو قَسْـوَةَ الـدَّهْرِ عَـاجزٌ ... ذَليْـلٌ علـى فَـرْشِ الهـوانِ طـريْحُ[2]

وتجد معاناة السجن صدى أكبر في نفس الشاعر حين يكون منطلقها دواعيا يراها الشاعر واهية، أو دسائس واشٍ وجدت صداها في مسمع مَنْ بيده الحال، لذلك بات للسجن وقع أليم في نَفْس الحاجري، إذ أخذ منحى جاداً بعد أن طال سجنه، وضاقت نفسه بما باتت

(٢) م. ن، ص٣٧٢.

(٢) قلائد الجمان، مج٣، ج٤، ص٢٩٠، وهو علي بن شماس بن هبة الله أبو الحسن بن أبو الفضل الإربلي ولد بإربل سنة (٥٤٤هـ) ، كان لطيفاً عاقلاً، كتب في ديوان الإنشاء بإربل ثم استوزره مظفر الدين كوكبوري، توفي سنة (٦٢٢هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢٨٨-٢٨٩.

تلاقيه من ذلٍ وهوانٍ، إذ أنشب الضعف مخالبه في نفسه المتهالكة، مما دفعه إلى أنْ يجعل الاستعطاف المؤثر مطية يعتمدها في ثنايا شكواه، ولاسيما حينما لم يجد شفيعاً يشفع له، مدعياً أنَّه أُخذ بأقوال الوشاة ظلماً، بعدما كان يجسد الوفاء في خدمة الأمير مظفر الدين كوكبوري، إذ راح يخاطبه، قائلاً:

(الكامل)

قَـــدْ آنَ أَنْ أَشـــكُو إليـــك فتَنْصِـــفا ... ولأَنْـــتَ أَجْـــدَرُ أنْ تَـــرقَّ وتَعْطِفـــا
سِـــجْنُ الفتـــى مَـــوْتٌ فكيـــف حياتَـــهُ؟ ... خَطْبـــانِ يُـــوْهي مِنْهُمـــا صَـــلْدُ الصَّـــفا
بَلَـــغَ الوُشـــاةُ مُنـــاهُمُ بالسَّـــعْي بـــي ... ولقَـــدْ وشُـــوا زُوراً إليـــك وزُخْرُفـــا
قـــالُوا سَـــفاهاً قـــدْ هَفَـــوْتَ بِزَلَّـــةٍ ... ولِمـــنْ ألـــوُمُ ولـــي لِسـانٌ قـد هفـا؟
مـــولايَ أشْـــفيتَ العِـــدا بَجفـــاك لـــي ... سَـلْ قَلْبَـكَ القاسـي علـيَّ أَمـا اشـتفى؟
لا تَتَّهمنـــي فـــي هـــواكَ بَزِلَّـــةٍ ... مـا كـان لـي ذنْـبٌ إليـك سِـوى الوفـا[1]

ويصل الاغتراب النفسي به إلى أقصى درجات الانفعال، مما دعاه إلى بث زفرات التحسر والوَلَهْ التي ملأت قلبه حين راح يرفض الحياة التي رفضته حين حجبت عنه كل ما يبتغيه من ملذاتها وزخرفها، وبات يحسب نفسه ميتاً بعدما أصبح السجن له مربعاً، إذ يقول، مناجياً نفسه الباكية المتألمة:

(البسيط)

يـا حَسْـرةً فـي فُـؤادي لا أبُـوحُ بهـا ... ألقـى الإلـه بهـا والخَلْـقُ قـد بُعِثـوا
إنْ أَقْسَـم النَّـاسُ أنَّ الـرُوحَ فـي جَسـدي ... وأصَـبَحَ السِّـجْنُ لـي رَبْعـاً فقـد حَنِثُـوا
لا تسـألُوني عـن الـدُّنيا وزُخرفهـا ... فـإنَّني اليـومَ مَيْـتٌ ضَـمَّهُ جَـدَثُ[2]

وقد يلوذ السجين هارباً من اغترابه وواقعه الأليم حين يلجأ إلى استذكار لحظات حياته السابقة التي باتت حلاوتها تزداد بفعل واقعه المر، ليعيش لحظات جميلة يبتعد بها قليلاً عن واقعه القاسي، لكنها لحظات لابد لها من أن تتبخر في أجواء السجن اللاهبة، وحين تقارن نفسه بين حاضره وما مضى فتشتط شوقاً لتلك اللحظات البعيدة، مما يدعوها

(٢) ديوانه (رسالة) ص٣٦٤-٣٦٥.
(٢) ديوانه (رسالة) ، ص٣٦٣، الحنث: من الحنث بكسر الحاء، الخلف في اليمين، الجدث: بفتحتين القبر.

إلى الأسف وبث الأشواق المحملة بحرقة البعاد والاغتراب، كقول الحاجري:

(البسيط)

أَحبابَنـــا أيُّ داعٍ بالبعـــادِ دَعـــا ... وأيُّ خَطْـــبٍ رَمانـــا مِنـــه تفريـــقُ؟
لا كـــانَ دهْـــرٌ رمانـــا بـــالفراق لقـــد ... أضـــحى لـــهُ فـــي صـــميم القلـــب تمزيـــقُ
كانـــتْ تضـــيقُ بِـــيَ الـــدُّنيا لِغيبـــتكُمْ ... فكيـــفَ سِـــجْنٌ ومِـــنْ عاداتـــهِ الضِّـــيقُ؟[1]

وكان لتلك القيود التي تكبلت بها نفس الشاعر، فضلاً عن قيود المكان التي أركعته لما لا يتمنى وجاءت بغير هواه، أن ملأت نفسه ألماً وحسرات منبعها ذلك الاضطراب النفسي الذي بات يخنق النفس ويوحشها، لاسيما إذا صاحبها ذلك الإحساس بالظلم وعلَّو الهمـة، إذ تـرجم ذلـك الإحسـاس إسـحاق بـن معـالي الإربلـي (-٦١٧هـ) فـي قولـه:

(الوافر)

وكيـــفَ يَنـــامُ صَـــبٌّ مُسْـــتَهامٌ ... لَـــهُ فـــي السِّـــجْنِ عَـــامٌ ثُـــمَّ عـــامُ
بـــلا جُـــرْمٍ تقـــدَّم مِنْـــهُ لكـــنْ ... لَـــهُ فـــي المَجْـــدِ بَيْـــتُ لا يُـــرامُ[2]

وقد يدعوه ضيق النفس واغترابها في السجن إلى نفث هموم الاغتراب على الناس من خلال ذم المدينة لما يلاقيه من ظلمٍ من أهلها زاده اغتراباً فوق اغترابه، لذلك قال طه بن إبراهيم الإربلي وهو في سجنه يذم إربل وأهلها:

(الوافر)

لحـــاكَ اللهُ مِـــنْ بلـــدٍ خبيـــثٍ ... فلسْـــتَ تطيـــبُ إلاَّ للغريـــبِ
أإربـــلُ لا سَـــقاك اللهُ غيثـــاً ... فقـــدْ أقفـــرت مِـــنْ رَجُـــلٍ لبيـــبِ
أَرَى الغـــرّاءَ قَـــدْ مُلِئَـــتْ لِئَامـــاً ... وقـد ضـاقَتْ علـى النَّصـحِ الوَهـوب

(١) م. ن، ص٣٦٦، وقد جسد مشاعره تلك في أكثر من نص، ينظر: ص١٥٣، ٣٦٢، ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص٣٦٥-٣٦٦، وهو إسحاق بن معالي بن شماس أبو إبراهيم الإربلي كان عالماً بأيام العرب وأشعارها قرأ شيئاً من الهندسة والطب كان يتولى الأهراء بإربل (بيوت يوضع فيها القمح ونحوه) فرفع عليه ميال جزيل غجز عن أدائه فسجن إلى أن مات في سجنه سنة (٦١٧ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٦٠-٣٦١.

ألا أخـــزى الإلـــهُ بُلَيْـــد سُـــوءٍ تحكَّـــم فيـــه عبَّـــادُ الصَّـــليبِ[1]

وكما شكا الشعراء من تقلبات الزمان وغدره، وإدبار الدنيا كان لتوهج التذمر مناخاً مناسباً في نفوس الشعراء ذلك أن (الإحساس بالظلم والغبن لدى السجين يسبب حالة وجدانية يرى من خلاله أنه في عالم غير عالمه، فقد تحول عنه أصدقاء الأمس، وربما الأهل إلى غرباء مقصرين، فهو بالنسبة لهم منبوذ)[2]، كقول الحاجري الذي وجد أن أحبابه اصطفوا بجانب الزمان الخؤون، وظل يلهث باحثاً عن مُعين، لكن ولآت حين مناص، إذ يقول: (المجتث)

مَـــنْ مُسْـــعدي ومُعينـــي على الزَّمـــانِ الخـــؤُونِ
أَذلَّنـــي وأرانـــي فَـــوْقي الَّـــذي هُـــوَ دُونـــي
وكُـــلُّ أهـــلِ ودِادي وَصُـــحْبتي هَجَرُونـــي
أَقضـــي اللَّيـــالي بِطَـــرفٍ بـــاكٍ وقَلْـــبٍ حَـــزينِ

وعندما يصل به شعوره ذاك إلى الذروة تنجلي بذرات الحكمة في داخله لتثمر خواطر ونفحات إيمانية ليجد فيها ما يُعزِّي نفسه ويُهوِّن مصائبها، إذ يقول:

أيـــنَ المُلـــوكُ وقـــوْمٌ تَحصَّـــنُوا بالحُصُـــونِ؟

أَيـــن انتظـــامُ ثَمُـــودٍ والمـــالُ مـــن قـــارونِ؟
أَيُـــوبُ أضـــحى مُعـــافىً بَعْـــدَ الـــبلا والأَنـــينِ
ويُـــوُنس أدركتْـــهُ النجـــاةُ فـــي بطـــنِ نُـــونِ
ويُوسُـــفُ قـــد نـــال عِـــزّاً مِـــنْ بَعْـــدِ سِـــجْنِ سِـــنينِ
فالـــدهْرُ طـــوْراً بِعِـــزٍ يَقْضـــي وطـــوْراً بِهُـــوْنِ[3]

(١) م. ن، مج٢، ج٣، ص١٦٥.
(٢) شعر السجون في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هادي سدخ أصفير (رسالة ماجستير) ص٢٣٠.
(٣) ديوانه (رسالة) ص٣٧٦-٣٧٧.

وفي لحظات الفتور النفسي تخمد نار الأسى قليلاً في نفس الشاعر فتميل نفسه إلى الاستسلام للواقع أحياناً، أو اللجوء إلى الحكمة التي من شأنها دفع نفسه نحو الهدوء المؤقت، حين يتخذ من الموعظة درساً بليغاً يسلي نفسه به، لكنه لا يُعبِّر بالضرورة عن موقف فلسفي اتخذه الشاعر تجاه الحياة، إذ لم نلمس ثبات ذلك التوجه عند أي من الشعراء في السجون، وإنما قد تكون خواطر ذهنية أملتها تجارب مؤقتة، أو ظرف نفسي متأزم مؤقت أفرزته ظروف الحياة الخاصة ودعته إلى أن يكون الصوت الذي تجد فيه نفسه ما يهوِّن عليها مآسيها بعدما فقدت ذلك الصوت من غيره، وقد نهج مجد الدين النشّابي هذا الأسلوب وهو مسجون حين راح يصور حال الدنيا وغدرها بأهلها على عادتها، إذ يقول: (مخلع البسيط)

يـــا قلـــبُ خَفِّـــض عليـــك حُزنـــاً ... واصـــبرْ فللصـــبرِ طيـــبُ مجنـــى
هَبـــكَ ملكـــتَ الـــبلاد جمعـــاً ... أَلســـتَ تَبلـــى، ألســـتَ تفنـــى؟
دُنيـــا غـــدتْ كُلُّهـــا دَنايـــا ... فكـــلُّ يـــومٍ تكـــونُ أَدنـــى
ونحـــنُ ركـــبُ الأَنـــامِ فيهـــا ... نَرحـــلُ عنَهـــا كمـــا نَزلنـــا[1]

لذلك وجد أغلب الشعراء في توجههم تلقاء الاتعاظ والعبر مسوغاً يُطفئ غليان ثورة نفوسهم، فكانت الحكمة طريقاً سلكه معظم الشعراء الذين ذاقوا لباس السجن، ومنهم الحاجري في قوله:
(البسيط)

(١) ديوانه (رسالة) ص٣٣٧، والمعنى نفسه ورد عند إسحاق بن شماس الإربلي ينظر: قلائد الجمان، مج١، ج١، ص٣٦٢.

مِـنْ شِـيمَةِ الـدَّهْرِ إعـراضٌ وإقبـالُ فمـا يَـدُومُ علـى حالاتـهِ الحـالُ
وكـلُّ شـيء وإن أَعْيـا لـهُ أَجـلٌ يُقْضـى عليـهِ، كمـا للنـاس آجـالُ
بَيْنـا تكـونُ منُـونُ الخَطْـبِ نازِلـةً تُلقـي الرَّجـالَ، تراهـا وهـي قُفّـالُ
للشَّـامِتينَ بِنَـا يـومٌ نَصُـولَ بـه علـيهُمُ بالأمـاني مِثْـلَ مـا صـالُوا[1]

إذ نجده يسلي نفسه ويهون عليها تقلبات الزمان، مقنعاً إياها بان الدنيا كما أدبرت ستقبل يوماً لا محال.

الشيب:

يُعَدُّ الشيب مصدراً مثيراً لهواجس القلق الإنساني، إذ أَنَّه يمثل محطة تنذر بالتحولات السلبية للإنسان حين أَخذت بوادر الضعف والاستلاب تلوح بالأُفق، مما يثير توترات الإنسان الداخلية بعدما عاش مرحلة مليئة بالعطاء والحيوية.

وإن أرتبط الشيب بالزمن، كونه نتاجاً من نتاجاته، إذ أنَّ الوعي الإنساني يدرك أن ذلك الزمن (لا يسير إلاَّ في اتجاه واحد، ولا يقبل الإعادة بأي حال من الأحوال... وربما كان أقسى ألم يعانيه الإنسان هو ذلك الألم المنبعث من استحالة عودة الماضي وعجز الإنسان في الوقت نفسه عن إيقاف سير الزمان)[2].

لكننا وعلى الرغم من ذلك لا يمكننا أن ندرس أثر الشيب ضمن الاغتراب الزماني، كما مال إلى ذلك بعض الدارسين[3]، ذلك أنَّ لظهور الشيب أثراً نفسياً يدفعها باتجاه انفعالات وتوترات وهواجس حادة تشكل أثراً نفسياً يعيش مع الإنسان لا يمكن له أن يتجاهل صداه من خلال الإحساس بأنَّ الشيب زائر مقيم ونذير يبعث الرهبة ويوقظ الوعي بأنَّ ما كان جميلاً لم يبق منه إلاَّ ما تعلق في خيوط الذاكرة لذلك ولَّد ظهوره واقعاً نفسياً مغترباً يتبدَّى من خلال تحسّس الشعراء من هذا القادم المشئوم، وتخوّفهم في الوقت نفسه من رحيله، فيعيش الشاعر في حلقة الهواجس التي تذيقه مرارة ذلك الإحساس الأليم، فيغدو

(١) ديوانه (رسالة) ص٣٦٨، القفال: الرجوع من السفر، وينظر: المعنى نفسه في الحوادث الجامعة ص٤٨٧-٤٨٩.
(٢) مشكلة الإنسان، زكريا إبراهيم، ص٧٦.
(٣) ينظر: الاغتراب في الشعر الجاهلي (أطروحة) ص١٧٨.

الإنسان إزاء نظرته للشيب يعيش داخل مرحلة جديدة من المعاناة الداخلية المتمثلة في ذلك الصراع النفسي الحاد مع متطلبات تلك النفس وأحلامها، وفرضيات الواقع المؤلم، إذ أنَّ توقد الشيب شكَّل مصدر شؤم وقلق دائمين للإنسان، حين يضعه أمام تحدٍ صعب ومنعطف يمثله ذلك التبدُّل والتحوُّل من مرحلة الحيوية والشباب إلى مرحلة المشيب، فيتملكه وضع نفسي مغترب يُحرِّكه واقع الفقد والاستلاب رغماً عنه، وذلك ما تجزعه النفس التي قد تستسلم للقدر في النهاية، فذلك واقع لا مفر منه، لذلك رحنا نلتمس الغرابة من توجه باحثة محدثة حين تناولت ظهور الشيب وهواجسه النفسية ضمن غرض الحكمة والزهد[1]، إذ لا يمكن أن نطمئن لهذا التوجه أو نشارك الباحثة فيه كونه لا يتفق مع توجهنا في بيان أثر دلالات الشيب وانعكاساته على النفس، ومنْ ثَّم انعكاسات النفس على الشعر، ذلك أن تلك الإرهاصات النفسية دفعت الشاعر إلى أن يعيش حالات نفسية متعددة، فكانت تعابيره مختلفة وإن مال إلى الاستسلام والتوجه إلى الزهد والقناعة في نهاية الأمر، إلاَّ أنه عاش واقعاً نفسياً حاداً تمثل في تعدد حالات الرفض والخوف من الشيب ومحاولات مداراته بأساليب عديدة، ثم إعلان تذمره وانعكاساته على علاقاته، ولاسيما مع الجنس الآخر الذي يتوجس من ظهور الشيب، ثم لا ننسى ذلك الإحساس المتولد جراء ظهور الشيب وأثره في اعتصار النفس الإنسانية، حين يشعر الإنسان بأن الموت يداهمه، لذلك بدت أحاديث الشيب تتغلغل في شعر الشاعر كلما تغلغل البياض في شعر رأسه، حين شكلت الشكوى والتذمر من تغيرات الزمن صدى موجعاً ألَّمَ نفسه جراء ذلك الصراع الذي يعيشه الإنسان داخل النفس حين يلقي الشيب ظلالاً من الإحباط والثقل في تقبل صورته التي تنغِّص فرحة الإنسان كلما استذكره، فيصب غضبه عليه من خلال ذمه، كقول القاسم بن أحمد العلوي الموصلي: (المتقارب)

وطَـــارقِ شَـــيْبٍ أَتَـــى تَالِـــداً ... فجـــارَ علـــى الأَسْـــوَدِ التَّالِـــدِ
فَـــنَغَّصَ عيشـــي تلافَيهمَـــا ... إلـــى أنْ رَثَـــى رَحْمَـــةً حاســـدي[2]

(١) ينظر: الغربة والحنين في شعر القرنين السابع والثامن (أطروحة) ص١٦٨-١٧١.

(٢) قلائد الجمان، مج٤، ج٥، ص٣٧١، القاسم بن احمد أبو الحسين بن أبي جعفر العلوي الحسني الموصلي ولد سنة (٥٩٠ هـ) ، حفظ القرآن المجيد، وقال شعراً صالحاً، كان حياً سنة (٦٥٤ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٦٨.

لذلك يصبح الاغتراب حقيقة إنسانية عامة وصراعاً خفياً تقتضيه طبيعة الوجود، لكن الإنسان يبقى ضحية هذا الصراع حين يتجرع الألم والنكبات، دون أن يمتلك القدرة على تغيير تلك الحقائق الكونية ولابد من أن يدرك أخيراً أن الوجود محكوم بالفناء الإنساني.

ويضحي قلق الشاعر جلياً حين يبث شكواه من الشيب لما فيه من بشائر النهاية، وفي أزمة ذلك الصراع النفسي يسترجع الشاعر ذكرياته، فتغدو به القناعة إلى أنَّ شبابه ما هو إلاَّ لمحة بارق أو خيال طيف طارق حين داهمه الشيب فأقلق نفسه، ويزيد ذلك القلق خشية الشاعر من مفارقته له وهو كاره له، فيغدو به ذلك التضاد النفسي إلى اغتراب نفسي مبعثه ذلك الصراع الداخلي العنيف لفقدانه زمن الصبا، وتخوفه من دنو الموت حين بدا يشم نسمات المنايا وهي مقبلة فينقلب حزنه خوفاً، فنجد النشّابي يبكي حسرة، إذ يقول:

(الكامل)

زمـــن الصِّـــبا مـــا كنـــتَ إلاَ زائـــراً ... كانـــتْ زيارتُـــهُ كلمحـــة بـــارقِ
غمَّضـــتُ جَفنـــي والتصـــابي ســـاعةً ... وفتحتُـــهُ فرأَيـــتُ شـــيبَ مفـــارقي
فكـــأنَّ شـــيبي لـــم يـــزلْ وكأنَّمـــا ... كـــان الشّـبابُ خيـــال طيـــفٍ طـــارقِ
كـــان الشَّـــبابُ دُخـــانَ عشـــقٍ شـــابَهُ ... شَـرَرُ المشَـيبِ لحـرقِ عِشـقِ العاشِـقِ
قـــد كنـــتُ زوجـــتُ الصِّـــبا أمَّ المُنـــى ... فغـــدتْ بقاضـــي الشَّـــيبِ أَطلـــقَ طـــالِقِ
وخشـــيتُ مـــن وقـــعِ المشـــيبِ فعنـــدما ... وافـــى خشـــيتُ بـــأن يكـــونَ مُفـــارقي

ثم تعلو الحسرَة صرخات نفسه، وهو يشعر بدنو الموت، فيقول:

(الكامل)

هيهـــاتَ نشـــداني قِطـــافَ شـــبيبةٍ ... بعـــد الـــذَّبولِ وحَصـــدَ عُمـــرٍ خـــافِقِ
قـــد كـــان لهـــوي للشـــباب موافِقـــاً ... واليـــومَ عنـــدَ الشَّـــيبِ غيـــرَ موافـــقِ
مـــا أَقـــبح الشـــيخَ الكبيـــرَ إذا اغْتـــدى ... يَصـــبو كـــأَهيفَ أَو كخـــودٍ عاشِـــقِ
وإذا أنقضـــت ســـتون عامـــاً للفتـــى ... قالـــتْ منيتُـــهُ: أراكَ مُعـــانقي[1]

(١) ديوانه (رسالة) ص٣٢٦، وينظر: في المعنى نفسه شذرات الذهب، ٩١/٥، البداية والنهاية ١٠٠/١٣-١٠١، ديوان أبي اليمن الكندي، ص٦٥-٦٦، ٦٨.

ويمسي الشاعر باكياً بفعل شيبه الذي بدا يغزو سواد شعره و هو يستذكر شبابه متأسفاً، فلم يجد إلاَّ الاستسلام للقدر راجياً التوبة من الله على ذنوبه حين غدا الشيب عِبرةً ونذيراً(١).

أَمَّا الحاجري الذي بكى أسى على التصابي وذهاب أيام الشباب، راح يصور قلقه النفسي حين رضى نتف لحيته بيده في دلالة واضحة على حالة الصراع النفسي الحاد ومحاولة الهرب والتخفي من ذلك الواقع الجديد، إذ يقول:

(البسيط)

الشَّـيْبُ أَسْـكَنَ قلبـي غايـةَ الكَمَـدِ ومَـدَّ عيْنِـي إلـى الشُّـبَّانِ بالحسـدِ
يَكْفِـيكُمُ أنَّ ذاكَ الشَّـيْبَ حـين بـدا أنِّـي رضـيتُ لنَتْـفِ لحيتـي بيـدي(٢)

وتملك الإحساس بالريبة من توقد الشيب أغلب الشعراء لأَنَّه يُعْدُّ نذيراً بذهاب عصر الشبيبة من غير رجعةٍ وذلك ما جسده أغلب الشعراء كقول ابن دنينير اللخمي: (الكامل)

ويُريبنـي وخـطُ المشـيبِ وإنَّمـا عصـرُ الشـبيبةِ لـيس بالمُسـترجع(٣)

وقد يدفع ذلك الصراع النفسي بالشاعر إلى إيهام نفسه بحثاً عن الشباب الضائع في محاولة أخفاء ذلك الشيب بالخضاب، علَّ ذلك يعيد له شبابه الذي فقده، إذ يقول ابن دانيال:

(الرمل)

(١) ينظر: قلائد الجمان، مج١، ج١، ص٤٢٧.
(٢) ديوانه (رسالة) ص٣٩٦.
(٣) ديوانـه (أطروحـة) ص٣١٩،يريبنـي: يقلقنـي، وخـط: فشـافيه، وينظـر: ديـوان أبـي الـيمن البغـدادي، ص٧٥، قلائد الجمان، مج٤، ج٥، ص٢٩٧.

إنْ مضَتْ أيَّامُ لَهوي والتَّصابي ... وَبدا صُبْحُ مَشيبي في شبابي
وبدَتْ لي هامةٌ في هامتي ... طيَّرَتْ عن وطن البيضِ غُرابي
فسأخفيه أحتجاجاً مِثْلَما ... أصبحتْ لمياءُ عنِّي في احتجابِ
بخضابٍ مثلما قد سترتْ ... وَجْهَها عنِّي بكفٍّ ذي خضابِ
رُبَّ بيضاءَ بدَتْ في عارضي ... تتلألأ كلآلٍ في سحابِ
قيلَ لي إيّاكَ أنْ تَنْزَعها ... تأتِ أضعافاً فأكثرتُ اعتجابي
قُلتُ هاكُمْ فانتفُوا أسودها ... لحيتي تنمي على هذا الحساب(١)

لكنه يدرك في قرارة نفسه، ما ذلك إلاَّ وهْمٌ لا يمكن أن يبعث الاطمئنان داخل النفس المغتربة فتتعالى بيارق اليأس بعودة الشبيبة مما يدعوه لمحاولة صهر انفعالاته والتنفيس عن هواجسه من خلال ذم الشيب، إذ يقول:

(الطويل)

أَحَمِّلُ شيبي صِبغةً بعد صُبغةٍ ... وصُبغةَ ربِّ العرش أَحسن صُبغةِ
وإذ شاب رأسي شاب عَيشي شآبُ ... رمَى بفُؤادي مُنْيَتي بِمنيتي
وحاولتُ أنْ يخفى مشيبي فما اختفى ... ويكفيك أنِّي كاذِبٌ وسط لحيتي

بياضٌ به تجري دموعي كأنَّه ... لذاكَ دموعُ العين صاحبُ دَمعةِ(٢)

ويدرك ابن دنيزير اللخمي أنَّ الأخطار باتت تلاحقه، أثر ذلك الشيب، الذي بات مصدراً من مصادر عذابه حينما جعله خائفاً يترقب خطر الموت، لاسيما وأنَّ الشباب فارقه مؤذناً بتمشي الأسقام في جسده، إذ يقول: (البسيط)

ويجْلُبُ الشيبُ لي حُزناً إلى حزَنِ ... أَبيتُ منه على خوفٍ وأَخطار(٣)

---

(١) المختار ص١٤٠.
(٢) م. ن، ص٢٠٧-٢٠٨.
(٣) ديوانه (أطروحة) ص٢٨٧، وينظر: فوات الوفيات، ٣١٧/١، إذ كرر الصرصري المعنى نفسه، وينظر: كذلك ديوان الحاجري ص٢٨، المختار ص٢٠٧.

وفي لحظات الإحساس بالخوف والرهبة التي تثير في داخل الشاعر اغتراباً عزَّزه تثلم أركان الشباب، وتصدع عرشه، يحن الشاعر لأيام الصِّبا، ولحظات اللهو ولياليي الشباب ليوازن بينه وبين ذلك الإحساس بالجزع والإحباط، والذي يغدو به في نهاية الأمر إلى القناعة من خلال خنق ذلك التمني بعودة ما فات من عمره حين أدرك استحالته، فقد ترغم النفس الشاعر إلى الرضوخ للواقع فيرتضيه مرغماً بعدما بات مقتنعاً أن لا طاقة له بدفع ذلك الخطر، إذ يُضحي به قلقه أحياناً إلى مغازلة نفسه بهدوء فيعلن أنَّه مُرحب بذلك الضيف الثقيل، وكأن نفسه هدأت بعد شدة وانفعال، حين راح يستسلم لذلك المصير الذي لابد منه، إذ يقول أبو اليمن الكندي:

(الخفيف)

وبيـــاضٌ فـــي العارضـــين أرى منـــ ـــــه بعينـــيَّ كـــلَّ مـــا لا يـــروقُ
وبِرَغمـــي أَرْضـــى بـــه وأُداريـــ ـــــه لأَنِّـــي لِدفعـــه لا أُطيـــقُ[1]

وشكَّل الشيب هاجساً نفسياً، ومصدر نفور على صعيد العلاقات العاطفية إذ راح العشاق يئنُّون من عمق ذاك الحس الاغترابي المتولد بفعل صد الحبيبات، حيث بدت سُحب الهموم والتوتر تتصاعد مخلفة شكوى حزينة يؤججها انفعال وضيق نفسي شديد، بعدما لاحت أُفق مواسم الهجر عند الحبيبات. حين عكس الشيب نفوراً ذاتياً منبعه ذلك الوعي المتعمق بأفول موسم المتعة واللهو وباتت صحبتهم يشوبها الحذر والتوجس لظهور الشيب نذير الضعف والوهن، والذي يفقدهم نشوة اللقاء حين تغطي عواصف المصير المحتوم صفوة اللقاء، لذلك بات هذا الإحساس يُقرِّح ذلك العمق الاغترابي، من خلال مرّ الأنين وأَسى الزفرات التي رحنا نحسها ونشمها في صدى أشعارهم، وهي تعكس حجم تلك المعاناة النفسية التي خلَّفها ذلك الصراع الحاد المتأجج داخل تلك النفس القلقة، وهي تستشعر وتتلمس وتبصر تبدُّل أحساس المرأة تجاهه، ونفورها من الشيب، مما يعمِّق إحساسه بدنو أجل الشباب، فيتجرع مرارة تلك الحقيقة حين يدرك إنها باتت حقيقة لا مفر منها، وذلك جرح بتنا نسمع أَنينه في قول محمد بن المبارك الموصلي وهو يتجرَّع مرَّ الغدر بعد أن

(١) أبو اليمن الكندي حياته وما تبقى من شعره، ص٦٥، وينظر: ديوان الصاحب بهاء الدين ص٨٠.

أضاء صبحُ المشيب في رأسه، إذ يقول متحسراً بعدما أعياه كتمانه:

(البسيط)

لله كَـمْ مِـنْ لُبانـاتٍ قضـيتُ بهـا ... أَيَّـامَ لَـمْ يَهْتَضِـمْني الشَّـيْبُ والهَـرَمُ
فـاليوْمَ لاعثْرتَـي فيهـا تُقـالُ ولا ... يُرعـى لـدَيَّ بهـا إلٌّ ولا ذِمَـمُ
لا دَرَّ دَرُّ الغـواني كَـمْ حشـاً تركُـوا ... مَقْرُوْحَـةً حشْـوُها مـن جَـوْرِهم أَلَـمُ
يُوْفُـونَ بالعَهْـدِ مـادامَ الشَّـبابُ لنـا ... غَضَّـاً ومامَسَّـنَا الإمْـلاَقُ والعـدمُ
صحوتُ يا صاحِ من سُكْرِ الشَّباب وقَد ... أَضـاءَ صُـبْحُ مَشـيب لـيس يَنْكَـتِمُ[1]

ومما يؤلم الشاعر إدراكه أنَّ مباهج الحياة ولهوها يفسدها غياب المرأة، لما لها من أثر عميق في تكوين الرجل، وإكمال وجوده وإثارة عاطفته، لذلك شكَّل غيابها أو نفورها حساً اغترابياً يعجز الشاعر عن مقاومته، لاسيما وأنَّه ينزف ألماً من عمق ذلك الجرح الذي بات يتوسع بفعل ذلك البياض الذي علا مفرقيه، ويتملكه أحساس مُخيف لا يكاد يتجرع ألمه، وقد أعجزه فعل الزمن عن أدراك ما فات، وكم هو مؤلم أن يدرك الشاعر أن الزمن أَجبره على أن ينتقل إلى الضفة الأخرى من حياته، و هي ضفة تمنى أن لا يقرب بعيدها، لاسيما وأنَّه لم يبق له إلاَّ النظر إلى الضفة الثانية، فتزداد حرقته لفعل ذلك الشيب، إذ يقول أبو السعود بن الحسن الواسـطي (-٦٣٩هـ)، لما هجرته صاحبته:

(الكامل)

وَخَـطَ المشـيبُ فـأنكرتني زينـبُ ... وتنمَّـرت منـي وقالـت: أَشـيبُ
ونـأت فـلا منهـا خيـالٌ زائِـرٌ ... كـلاَّ ولا منهـا مـزارٌ يقـربُ
والسَّـقمُ فـي جسـدي يـدبُّ لِبينهـا ... يـوم الرَّحيـل كمـا تـدبُّ العقـربُ[2]

(١) قلائد الجمان مج٦، ج٧، ص١٠٢، وهو محمد بن المبارك بن القاسم الشهرزوري الموصلي من أبناء القضاة الشهرزوريين ولد بالموصل سنة (٥٨٦هـ) ، كان يعظ الناس بالمسجد وكان حسن الصوت في إنشاد الشعر، كان حياً سنة (٦٥٤هـ) ، ينظر: م. ن، ص١٠١.

(٢) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص١٠٧، وهو أبو السعود بن الحسن بن أبي منصور الواسطي شاعر هجَّاء سفيه اللسان، كان يُعلِّم الصبيان بواسط، لما أسنَّ تصرف في الأعمال الديوانية وامتدح الرؤساء المقدمين له ديوان شعر على نحو أربعة مجلدات، ينظر: م. ن، ص١٠٦.

وذلك أحساس تبادله الشعراء حين تشابهت ظروفهم، لذلك نجده يتكرر عند غيره منهم(١).

وعندما يجد الشاعر أنَّ صيحاته لم تجد أُذناً تسمعها أو تعي زيفها بدوام شبابه، يكون هدفاً لليأس الذي يبدد تلك الأحلام والأُمنيات بدوام التواصل مع الحبيب، وتلكَ قناعة أدركها عبد الله بن علي البغدادي حين قال: (الطويل)

وكيـف أُرجِّـي وَصْـلَ حَسْـناءَ غـادةٍ وبـين مشـيبي والشَّـبابِ خِصـامُ(٢)

ويدرك ابن دنينير اللخمي أن الشيب يصحبه خطر داهم تولَّد داخل كيانه الجسدي، فيلجأ إلى إسقاط حسه الاغترابي المتولد من ذلك الشيب على فعل الأيام في محاولة منه ليتجرع ذلك الجرح علَّه يتداوى بفعل قناعته بعجزه أمام ذلك الوسم الذي رمته به الأيام مُنذرةً بقدوم ما يُفرق الأحباب ويُشتت الجماعات بعدما كان اسوداد مفارقه وسيلة تتكئ عليها المرأة لصحبته، إذ يقول:

(الكامل)

لا تَعْجَبـي لمشـيبِ نَـودي إنَّـهُ وسـمٌ مِـنَ الأيـام غيـرُ وسـيمِ
فَلـو اسـتطعتُ نضـوتُ جَـدَّةَ بَـرده ورميـتُ شُـهبَ نجومـهِ برجـوَمِ
إنَّ اسـوداد مفـارقي لوسـيلةٌ عنـدَ المهـا للقُـرب والتسـليمِ
وأَرى المشـيبَ طليعـةً مـن بعـدها يـأتي تَشَـتّتُ شَـملِ كـلِّ حميـمِ(٣)

وقد يغدو الاغتراب بالشاعر إلى رفض وقار الشيب وحكمته، وتمني دوام ضلال النفس، في ظل شباب لا يفنى(٤).

وقد يُصيِّر الشيبُ الشاعر حكيماً حين يفقد البكاء والعويل والتمني والخضاب القدرة على إرجاع الزمان في لحظات الصراع النفسي، وتدفق الانفعالات تجاه ذلك الشيب، إذ لابد لتلك النار المتوقدة من أن تخفت مُحرِّقةً كل الأمنيات، لتغدو رماداً، فلم يجد الشعراء

(١) ينظر: م. ن، مج٣، ج٤، ص٢٦٤، مج٦، ج٧، ص٣٣٣.
(٢) م. ن، مج٢، ج٣، ص١٨٢، وهو عبد الله بن علي الدوني البغدادي، كان شيخاً لطيفاً كيِّساً عنده أدب، وفيه فضل ودعابة وخلاعة وهزل، ينظر: م. ن، ص١٨٢.
(٣) ديوانه (أطروحة) ص٤٣٩، طليعة المشيب: هنا مقدمة لدنو الأجل.
(٤) ينظر: قلائد الجمان، مج٣، ج٤، ص٢٠٥.

سبيلاً سوى التجمل بالحكمة والقناعة، والتخلّق بهما متخذين منهما عظة يواسون أنفسهم بها، كقول ابن دانيال:

(الوافر)

نِهايـــةُ مـــا بَنَيْـــتَ إلـــى انتِقـــاضِ ... وَشَـــيْبُكَ بـــالمواعظِ أيَّ قاضـــي
بنـــاكَ الـــدَّهرُ أَحســـن مـــا بنـــاهُ ... ومـــا بعـــدَ البنـــاءِ ســـوى البيـــاضِ[1]

ويتوسل إلى الله سبحانه أن يرحم ضعفه، ويقبل توبته، ويغفر له ما صاحب شبابه من ذنوب، متخذاً من وقار الشيب والشيخوخة مسلكاً يدعو النفس من خلاله إلى التوبة بعدما بات مدى مرمى المنايا غير بعيد، إذ يقول: (مخلع البسيط)

اســـتغفرُ اللهَ مـــن ذنـــوبي ... فـــإنَّني طـــاهرُ العيـــوبِ
أشـــرقت يـــا نفْـــسُ فـــي التَّصـــابي ... قـــد آن يـــا نفْـــسُ أن تتـــوبي
غيـــرُ بعيـــد مَـــدى المنايـــا ... تـــوبي إلـــى الله مـــن قريـــبِ
كفـــى بشـــيب القـــذال وعظـــاً ... قـــد قالـــه واعـــظُ المشـــيبِ
وغايـــةُ الـــنجم فـــي شـــروقٍ ... يُبديـــه أُفـــق إلـــى غـــروبِ[2]

ويتخذ الشاعر من أسلوب النداء وسيلة لإقناع نفسه على التمسك بأخلاق الوقار والمشيب، حين أفل الشباب، داعياً إلى طي ذلك الماضي وما رافقه من فسق وغي، فيقول يوسف الكفرعزّيَ الإربلي (-٦٣٢هـ):

(البسيط)

يَـا راكبـاً فـي بِحَـار الظُّلْـمِ مَلْتَحِفـاً ... غـيَّ الشَّـباب وقَـدْ غُمَّـتْ غياهبُـهُ
أفعالُـك السُّـوْدُ ناسـبْتَ الشَّـبابَ بهـا ... وابْـيَضَّ فـوْدُك فافْعَـلْ مـا يُناسـبُهُ
إنَّ النَّضَـارة قـد ولَّـتْ نظائِرُهـا ... وأقبـلَ الشِّـيبُ تغْزُونـا كتَائِبُـهُ[3]

---

(١) المختار، ص١٨١.

(٢) المختار، ص٤٠، القذال: جماع مؤخر الرأس، وينظر: ص٢٥٢.

(٣) قلائد الجمان، مج٨، ج١٠، ص٣٠٩، وهو يوسف بن يعقوب بن محمد الكفر عزي الإربلي، كان وسيماً طويلاً ينتقل من عمل إلى غيره، قليل النظم، توفي سنة (٦٣٢هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٠٩.

ونلمس الحسرة والمرارة و هي تطفو فوق قناعات الجزري التي كسا بها الشيب، مثنياً عليه، ومجهداً نفسه فوق أجهاد ها بفقد شبابها، مذكِّراً إيا ها بزعمه أن للشيب أفضالاً عليها، باحثاً في ذلك عن قناعة يروِّع بها نفسه لتهدأ، إذ يقول:

(الوافر)

رعـــاكَ اللهُ مِـــن شَـــيْبٍ نَهـــاني ... عَـــنْ اللهـــو المُزَهْـــرِه والهـــوانِ
وأَلهمنـــي الهدايـــة بعْـــدَ عشـــرْ ... وتســـع فـــي ثَمـــان مـــع ثمـــانِ
وأنســـاني التَّدْهُـــده فـــي الـــدَّواهي ... وأدمـــان الـــدَّنادن للـــدِّنان
وعوضـــني عـــن الكاســـات كيْســـا ... وتجويـــد المثـــاني بالمثـــاني
وأغنـــاني مـــن الغـــادات رغمـــاً ... وتغريـــد المعـــاني بالمغـــاني
وحـــولني خلائـــقَ لـــم أخلهـــا ... تُخـــامرُ خَلتـــي خَلْـــفَ الختـــانِ(١)

ويدرك أبو اليمن البغدادي أنَّ في طول العمر، وفقد الشباب إرهاقاً وذلة بعدما فقد طيبات الشباب، و غدا به فكره يُخيل له يوم رحيله، وكيف تسير به الأعناق إلى لحده، فيصاحب تلك التخيلات إحساس بالمرارة والألم نكَّد عليه أيامه، إذ شكَّل الموت في الشعر العربي هاجساً ملحاً وعميقاً في و عي الشاعر، حين سار به إلى الشعور بالقلق والحزن والخوف من المصير المحتوم، فكان الموت عاملاً رئيسياً في اغتراب النفوس، لأنَّ الفناء إحساس فطري تجسَّد سِرِّه داخل النفس بانفعالات ولَّدتها أفكار وتساؤلات مبعثها مخاوف حتمية المصير، فيتصعد الشعور بالاغتراب إزاء تلك الرؤية المشوبة بالتشاؤم والتوتر الجاثم على ذات الشاعر، والتي أسهمت بكل معطياتها في بلورة ذلك الشعور. وأمام هذا الحس المغترب تبدو بذور اليأس والقنوط، وفقدان الأمل تلوح بثمار ها، فالشاعر يرفض الموت أو يتوجس منه خيفة، لكنه يعبر عنه لإحساسه بالنهاية حين يستلهم ذاته المستقبلية وقد غدت إلى مصيرها، فيتجلى الواقع المر عب أمامه باتخاذ بُعْدٍ جديدٍ ترتسم فيه صورة القبر الذي شكَّل الإطار المشؤوم عبر رحلة الإنسانية، فبدت مشاعر التفجع تستحضر صور

(١) شعره، ص١٣١-١٣٢. أن ناتج الأرقام التي وردت في البيت الثاني هي تسعون، فلعه يقصد انه عاش عمراً طويلاً، المزهرة، بضم ففتح فكسر فكرس، الفاضح التدهده: التدحرج الدنادن: إدمان شرب الخمر، كيسا: فطناً، المثاني: من أوتار العود ويقصد الغناء، بالمثاني: في معاطف الوادي، ويقصد الخروج للنزهة والشرب، الختان، بالكسر: الصِّبا.

الرعب من مخيلته، إذ أن الخوف من الموت (إحساس ضمني بضرورة الفشل، وشعور أكيد بحتمية النهاية الأليمة)[١]، فتغدو صورة القبر وما يكتنفه من غموض حقيقة مؤلمة، لذلك يقول: (الطويل)

أَرى المـرءَ يهـوى أنْ تطـولَ حياتُـهُ ... وفـي طولِهـا إرهـاقُ ذلٍ وإزهـاقُ
تمنيـتُ فـي عصـر الشـبيبة أَننـي ... أُعمَّـرُ والأعمـارُ لا شـك أرزاقُ
فلمـا أتـاني مـا تمنيـتُ سـاءَني ... مـن العمـر مـا قـد كنْـتُ أَهـوى واشـتاقُ
يخيَّـل لـي فكـري إذا كُنـتُ خاليـاً ... رُكـوبي علـى الأعنـاق والسـيرِ إعنـاقُ

ويُـذكرُني مـرُّ النسـيمِ ورَوْحُـه ... حفـائر تعلُوهـا مـن التـرب أَطبـاقُ
وهـا أَنـا فـي أحـدى وتسـعين حِجَّـةً ... لهـا فـيَّ إرعـادٌ مَخـوفٌ وإبـراقُ[٢]

فراح يستذكر أمنياته في شبابه حين كان يتمنى العمر الطويل، إلا أنه بات مع تحقق تلك الأماني يتخيل نفسه وهو محمول على الأعناق التي تسير به نحو المصير المدرك.

نفثات اغترابية:

ويرى علماء النفس أنَّ شعور الإنسان بالضعف أو عدم انسجامه مع مجتمعه قد يؤدي به إلى العدوان والتمرد وإظهار القوة[٣]، وفي ذلك توجه ينم عن غربة نفسية حادة بدت آثارها واضحة في شعر ابن دانيال، حين حمَّل شعره قلقه واغترابه، إذ أنَّ من بواعث التجربة الأدبية الصدام الحاصل بين نفس الشاعر وواقعه الاجتماعي، وأنَّ النظر في البواعث الخفية للتجربة الأدبية يُظهر صراعاً بين الفرد والمجتمع، قد يُشعر الشاعر بالانفراد والغربة[٤].

إذ صوَّر حال الناس، وحال نفسه، حين راح يهجو بقسوة شديدة غير مُبالٍ إن كان المهجو ملكاً أو سوقةٌ، عالماً زاهداً، أو متعبداً وقوراً، فهو يريد الهجاء لذاته خارجاً عن

(١) مشكلة الحياة، زكريا إبراهيم، ص٢٠١.
(٢) أبو اليمن البغدادي حياته وما تبقى من شعره، ص٧٠-٧١.
(٣) ينظر: مبادئ علم النفس العام ص٩٠-٩١.
(٤) ينظر: القلق والاغتراب في شعر دعبل الخزاعي (بحث) ص١٣.

الإطار العام للقصيدة، وربما في ذلك انعكاس لنفسه الحائرة ليصب غضبه على المهجو، إذ يشير شعره إلى أنه كان يشتط غضباً لصغائر الأسباب، ولا يسكن غضبه إلا بشفاء غليله، فقد خاطب أحد رجالات عصره، قائلاً:

(الوافر)

ومَـــالي لَـــنْ أُجيـــبَ الكلـــبَ لكـــن ... لِشـــرِّك بالـــذي قوبِلـــتَ دَفْـــعُ
بـــذَلْتَ علـــى ابتـــذالٍ منـــك عِرضـــاً ... بـــلا عَـــرضٍ وفـــي جـــدواك مَنْـــعُ
فـــلا أَصـــلٌ ولا فـــرعٌ زكـــيٌّ ... كأنّـــك مـــن بنـــاتِ الأرض فقْـــعُ
وبَـــان لنـــا قـــذالُك ذا صِـــقالٍ ... كباذنجانـــة والخـــفُّ فقْـــعُ
فيـــا ذُبانـــة جلسَـــتْ بنجـــو ... وتحســـبُ أَنَّـــهُ عَســـلٌ وشـــمْعُ(١)

ولأنَّه كان يعمل كحالاً فقد نراه يصب جلَّ غضبه على أصحاب المهن، ربما حسداً أو لسوء حاله، حين رأى أنَّ مهنته لا تصب عليه العطاء الجزيل، إذ قال في هجاء شخص اسمه تقي العطار:

(المجتث)

يـــا معشـــرَ النـــاسِ كَـــمْ ذا ... إلـــيكم أَتظلَّـــمْ
إنـــي بُليـــتُ بقـــاسٍ ... مـــا إن يَـــرقُّ ويـــرحَمْ
ذو قِعـــدةٍ كجمـــادٍ ... إكرامُهـــا فـــي محـــرَّمْ
مـــاذا أقـــولُ لمـــن قَـــدْ ... تعـــوَّذَتْ منـــه مـــريمْ(٢)

ويبدو أنَّه كان يتابع عثرات الناس، لأنَّه يريد الهجاء لذاته بعيداً عن الإطار العام للقصيدة، عاكساً بذلك نفسيته المغتربة، ففي أحدى هجائياته خطاب لرجل كان ماجناً خليعاً

(١) المختار ص١٧٢، الفقع الشيء التافه الحقير، وأصله ذبت لا دفع فيه وفي البيت الخامس أيطاء وهو توافق القافية قبل سبعة أبيات، وقد توافقت قافيته مع قافية البيت الذي قبله.

(٢) م. ن، ص٢٣٤، وفي البيت الأخير الماحة إلى قوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، وله شعر كثير في هجاء أهل المهن كهجائه موفق الكحال، والطبيب أبو علي، وهجا عمال الحديد والسراج الجرواني في عمله وصنعته، وهجا علي شير واصفاً إياه بالبخل، ينظر: م. ن، ص٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٣٤.

فتاب وتنسك، ونظم حلقة في أحد المساجد يدعو الناس إلى الرشاد والصلاح، إذ يقول مخاطباً إياه:

(الخفيف)

لطَمَتْ بعْدَك الخدودَ الدُّفوفُ وتحامَتْ تلكَ الضروبَ الكفوفُ
وتساوَت عندَ الزَّفافِ وقد تُبـ ـتَ لِدُنيا ثَقيلها والخفيفُ

وصوَّره شيخاً فيه صبوة إلى أيامه الأوَّل، فراح يذكِّره بها وبأيام الزهد، سائلاً إياه عن أفضلهما، فيقول:

كيفَ ذُقتَ الخُشوعَ هَلْ هُوَ حلوٌ يا حريفي بالله أم حرّيفُ

ويلحُ عليه بالعودة إلى ما كان عليه إذ أن لبس الصوف لا يُغير منه شيئاً وأنَّ الآثام والخطايا التي لحقت به لا يُجلِّيها لبس الصوف مُبيناً بذلك شكَّه وعدم ثقته بالناس، فيقول:

أَترجَّى منك الرجوعَ قريباً طمعاً فيكَ والمُحِبُّ عطوفُ
لا تَقُلْ قَدْ لبستُ صوفاً فإنَّ الـ ـكبشَ جُلبابُه مع القُرن صوفُ

طارَ منك المقصوصُ في حلقكَ الرأ سَ لزُهدٍ وفاتكَ المنتوفُ[1]

ويظلُّ يلاحق هذا الشيخ ويأتيه بالحجج المختلفة، ليعود إلى ما كان عليه، حتى عاد ذلك الشيخ إلى ضلاله، فيعود معه ابن دانيال ليصفه وصفاً دقيقاً وكأنه التمس في ذلك نصراً مؤزراً، إذ يقول:

(البسيط)

قَدْ عادَ القصْفَ والنَّدمانَ والقَدحَا وكانَ نشوانَ من كأسِ التُّقى فَصَحا
شيخٌ غَدا في رباطِ النُّسك مرتبكاً فَيالَها سُبَحاً كانَتْ له شَبَحا[2]

وقد يولِّد فقد الأحباب حزناً عميقاً في نفس الإنسان، قد نلمس فيه بعداً اغترابياً من خلال رثاء الشاعر وهو يبث خلجات نفسه، إذ أنَّ الرثاء غرض قريب من تيار الحياة

(١) المختار، ص٨٥-٨٦.
(٢) م. ن، ص١٨٨-١٨٩، وفي ص١٦٥-١٦٦، خطابٌ آخر لهذا الشيخ، وينظر: ص٨-٩.

وواقعها الاجتماعي، فهو ربما يرتبط مع الغزل بوشيجة (تعبر عن جوانب ذاتية لمظهر نفسي واحد، وإن اختلفت مصطلحاته وأسماؤه)[١]. فالإحساس بفقد الأحباب يُشعر الفرد باغتراب حين تتوهج بداخله مشاعر الحزن والألم والشوق والذكريات، مما يُوَّلد بداخله الإحساس بالوحشة والوحدة لفقد ذلك العزيز فيحاول الشاعر إن يُعبِّر عن حُزنه ولوعته بنغم شجي حزين يحمل صدى الاغتراب الذي ألمَّ نفسه، ويتجسد هذا الشعور في الغالب عند فقد الأب رمز الأمان والسقف الذي يحتمي به الأبناء، فيكون لهاجس الوحدة والوحشة والضياع حضور فاعل داخل النفس يُشعرها بغربتها، وإن كان شعوراً مؤقتاً قد يزول بفعل الأيام، لكنه إحساس مؤلم جسَّده الحسن بن عدي (-٦٤٤هـ) حين رثى والده، وسط شعوره بالحيرة، واستذكار مناقب والده، متعجباً ومُستغرباً فقده، فكانت إشادته بمجد والده ومكانته تبياناً لإحساسه بالاغتراب بعد فَقْدِ مكانته، إذ يقول:

(الخفيف)

عيل اصطباري ونأي تجلُّدي ... وبانَ عنِّي بعدهمْ ارتحلْ
وقد بقيتُ حائراً مرتهناً ... أَندبُ ربعاً بَعْد عزٍّ قد عطلْ

أذْهَبَ مَنْ كانَ عماَدِيَ فيَ الرَّجا ... ومَنْ بهِ نلتُ نهايات الأمل
أعني بهِ الوالد، والهفي على ... عيش بهِ قَضَيْتُه بلا وجلْ
أندرستْ طُرق النَّدى من بعدهِ ... ومنهجُ العلمِ عفا ثم اضمحلْ
لهفي عليه وعلى زمانه ... لهْفَ كئيبٍ مِن جَواه ما أبلْ
وحُزن قلبي أبداً مؤبّد ... ما ينقضي قطُّ بحتَّى ولعلْ[٢]

وأشد الزفرات ألماً تلك التي ينفثها الشاعر في رثاء ابنه أو ابن أخيه وتشتد ألما مفصحة عن عظم المصيبة عندما يخاطب الشاعر الفقيد في موقف ينم عن حزن عميق، يدرك فيه الشاعر أن فقيده لا يفقه ولا يسمع ما يقول، لكن زفرات نفسه المرة أَبت إلا أن تخرج من نفسه بعد أن ضاقت تلك النفس، وفي ذلك اغتراب يحز النفس حزاً[٣].

وحينما تسبق يد القدر أحلام الشاعر وأمانيه يشعر بحسرة كُبرى ينز قلبه من جُرحها بعد فقده فلذة كبده، إذ يقول ضياء الدين عبد السلام حين شعر أن فقد ابن أخيه كساه حزناً لا يبلى:

(الوافر)

---

(١) المرثاة الغزلية في الشعر العربي، د. عناد غزوان ص٧.

(٢) تاريخ إربل ص١١٧-١١٨، وهو الشيخ أبو محمد الحسن بن عدي بن صخر بن موسى، ولد بالموصل، كان شيخاً عاقلاً واعظاً كيس الأخلاق، توفي سنة (٦٤٤هـ) ، ينظر: م.ن، ص١١٦-١١٩.

(٣) ينظر: الحوادث الجامعة ص١٧٧-١٧٨.

عمـــادُ الـــدينِ فقـــدُكَ قـــد كســـاني مِـــنَ الأحـــزانِ ثوبـــاً لـــيس يبلـــى[١]

وفقد الأخ مثلمة كبرى، وشرخ يحدثه فعل الزمان يترك حسرة ووجعاً لا يطيب، قد يُشْعِر الشاعر باغتراب يسكب فيه دموعاً غزاراً، مفتقداً للذة العيش، كقول فخر الدين ابن المبارك المخرمي في رثاء أخيه: (الطويل)

لقـد شـفني وجـدي وضـاقت مـذاهبي وحـل عزائـي بعـد مـوت المخرمـي

سـأبكيك مـا دامـت حيـاتي فـأن جـرى مـن الـدمع تقصـير سـأتبعه دمـي[٢]

وارتبط رثاء النساء بوضع نفسي خاص يمتلك القدرة على إثارة الشجن والزخم النفسي المتولد نتيجة ذلك الفقد، ولاسيما حين يجد الشاعر نفسه متجرداً من كل طاقاته، ولا يملك سوى البكاء سلاحاً يرد به على فعل القدر، عله يُنفِّس عن حزنه من خلال أفراغ بعض تلك الهموم والأحزان مع انسكاب دمعه، إذ يقول ابن النرسي البغدادي (-٦٢٦هـ) في رثاء امرأته:

(الكامل)

لمـــا تعـــذَّر أنْ أكـــون بهـــا الِفـــدا فتعـــيشُ بعْـــدي أو نَمُـــوتُ جميعـــاً

أتبعتُهـــا حُلَـــلَ الشَّـــبابِ فمـــا بقـــى فســـوادَ عينـــي قـــد أُذيـــبَ دموعـــاً[٣]

---

(١) تلخيص مجمع الآداب، ج٤، قسم ٢، ص٨٢٢، وهو ضياء الدين عبد السلام التكريتي كان حياً سنة (٦٢٦هـ) ، وينظر: م. ن، ص٨٢٢.

(٢) الحوادث الجامعة، ٢٣٦-٢٣٧، والإحساس نفسه جسده عز الدين بن عبد الحميد في رثاء أخيه موفق الدين، ينظر: م. ن، ص٣٣٦.

(٣) الوافي بالوفيات ١٤٦/١، وعبرَ الشعراء عن حزنهم وألمهم لفقد العلماء وأهل الفضل كرثاء ابن الكبوش البصري الملك عز الدين بن عبد العزيز بقصيدة وصفها د. مصطفى جواد بأنها تُعد من المراثي العربية في ذلك العصر عبرَّ فيها الشاعر عن عواطفه المستعرة الصادقة تجاه الفقيد، وجسَّد حزن الطبيعة عليه، منوهاً بمنزلة الفقيد، لكنه يستنجد في نهاية قصيدته بالحكمة والقناعة وأن الإنسان مصيره الفناء ولا خلود إلا للخالق عزَّ وجلَّ، ينظر: الحوادث الجامعة ص٤٨-٥١، واتجاهات شعر الرثاء في العراق في العصر الوسيط، رسالة ماجستير، ص٧١-٧٢، كما عبر الشعراء عن أحزانهم لفقد أحبابهم وللمزيد ينظر الحوادث الجامعة ٣٨٧، ٤١٥-٤١٦، عيون التواريخ ٥٧/٢٢-٦٦، قلائد الجمان مج٤، ج٥، ص٣٢، مج٨، ج٩، ص٢٥٣، الأدب العربي في العصر الوسيط، ص٤٣، وينظر الغربة والحنين في شعر القرنين السابع والثامن ص ٦٥-٨٦، إذ أشبعت الباحثة الموضوع بحثاً وأن بدا الخلط وعدم اتضاح الرؤيا واضحاً في توزيع مباحث أو مفاصل الموضوع. وابن النرسي هو محمد بن محمد بن أبي حرب أبو الحسن بن النرسي البغدادي الكتاب والشاعر، من ظرفاء بغداد، له نظم جيد، ينظر: الوافي بالوفيات ١٤٦/١.

إذ دفعه حزنه إلى الشعور بالوحدة، والإحساس بالفقد والعدم فما برحت عيناه تسكب الدموع.